تأملات في سورة الشعراء

سماحة العلامة الإمام الشيخ
السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي



تعريب
د. محمد فرمان الندوي

المجمع الإسلامي العلمي، لكناؤ، الهند

تأملات

في

سورة الشعراء

سماحة العلامة الإمام الشيخ السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي

تعريب

د . محمد فرمان الندوي

(أستاذ كلية اللغة العربية وآدابها، بدار العلوم لندوة العلماء، لكناؤ)

المجمع الإسلامي العلمي – لكناؤ – الهند

حقوق الطبع محفوظة للناشر
من مطبوعات المجمع الإسلامي العلمي
لكناؤ (الهند) (رقم: ٣٨٤)

الطبعة الأولى
١٤٤١هـ - ٢٠١٩م

اسم الكتاب : تأملات في سورة الشعراء
اسم المؤلف : الإمام الشيخ السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي
اسم المترجم : د. محمد فرمان الندوي
جمع وترتيب : الأستاذ رسال الدين أحمد الحقاني الندوي
عدد الصفحات : ١١٨
العدد : ١١٠٠
سعر النسخة : ١٠٠
الناشر : المجمع الإسلامي العلمي، ندوة العلماء
لكناؤ (الهند)
الهاتف : ٠٥٢٢-٢٧٤١٥٣٩
E-mail : info@airp.org.in
airpnadwa@gmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

بقلم : سماحة الشيخ السيد محمد الرابع الحسني الندوي
(رئيس المجمع الإسلامي العلمي والرئيس العام لندوة العلماء لكناؤ)

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين،ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فهناك صفتان بارزتان لا بد منهما للاستفادة من القرآن الكريم،إحداهما: الشعور بعظمة كلام الله تعالى ، وأخراهما: إدراك بلاغته البيانية ، أما الصفة الثانية فيحتاج الدارس فيها إلى أن يكون عالم العلوم الإسلامية والأدبية، وقد أشار الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَاءُ﴾ (سورة الفاطر: ٢٨)، فالمراد من العلماء أهل العلم والمعرفة الذين يدركون حقائق الأشياء،ويشعرون بالإعجاز الذي يجدونه في كلام الله المعجز ، والمؤمنون بقضاء الله تعالى وقدره واليوم الآخر يعترفون بها في معنى الكلمة، ويخشونه حق خشيته، فقد جُعل القرآن هدايةً لأهل التقوى، قال الله تعالى:﴿الم. ذٰلِكَ ٱلْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (سورة البقرة: ١ – ٢)، وبجنب التقوى والخشية لله يحتاج الدارس إلى أن يكون متبحراً في البلاغة القرآنية،وماهراً فيها.

يتميز الإمام الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي بهاتين الميزتين، فلم يفسر القرآن الكريم كاملاً بالنظر إلى الإعجاز البياني، لكنه كلما فسر الآيات القرآنية أثناء عمل الدعوة والتعليم ذكر نُكتاً قرآنيةً بكل دقة وأمانة، رغم ذلك ينقل في كتاباته ترجمةً موثوقاً بها من المترجمين ، وقد طلب منه كثير من العلماء

لتفسير القرآن الكريم، فاعتذر نظراً إلى جلالة الموضوع، وقد قام بتدريس نصوص القرآن الكريم في دار العلوم لندوة العلماء إلى مدة ، كما مارس درسه الأسبوعي للقرآن أمام عامة الناس في مدينة لكناؤ، وفي آخر حياته قام بتدريس القرآن الكريم في مسجد الشاه علم الله بتكية كلان، رائي بريلي، في رمضان المبارك، ولم يكمل هذه السلسلة بمرضه. لكن هذه السلسلة استمرت إلى الجزء الخامس عشر من القرآن الكريم، وقد سجلت هذه الدروس بالشريط، فنقل من الشريط سورة الشعراء أخونا العزيز رسال الدين الحقاني الندوي (دهره دون، هريانه)، كما رتب بعض دروسه من قبل في مجلدين باسم تفسيرات قرآنية، فأحسن ترتيبها وجمعها.

إن سعي الأخ الحقاني يكون بإذن الله بمثابة أعمال تفسيرية للإمام الندوي، فهذا الكتاب هو المجلد الثالث لهذه السلسلة، وهو يسد بعض ما نقص من هذا العمل الجليل ، نعتبر هذا المجهود التفسيري تحفة علمية إلى الأوساط الدينية والعلمية. أرجو أن يتقبله الله تعالى قبولاً حسناً، ويجعل نفعه كثيراً .

وقد أحسن الأستاذ محمد فرمان الندوي (أستاذ كلية اللغة العربية وآدابها، بدار العلوم لندوة العلماء، لكناؤ) تعريب الكتاب، فتيسرت بذلك الاستفادة منه لأهل العربية .

وصلى الله تعالى على خير خلقه محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

محمد الرابع الحسني الندوي
ندوة العلماء، لكناؤ (الهند)
١٤٤١/٠٦/٠١هـ
٢٠٢٠/٠١/٢٥م

كلمة تقديم

بقلم : سعادة الشيخ الدكتور سعيد الأعظمي الندوي
مدير دار العلوم لندوة العلماء لكناؤ (الهند)

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان ودعا بدعوتهم إلى يوم الدين، وبعد:

فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ. فِى كِتَابٍ مَّكْنُونٍ. لاَّ يَمَسُّهُ إِلاَّ ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ (سورة الواقعة:٧٧ - ٧٩) .

إن القرآن الكريم كتاب الله تعالى ، الذي ينوِّر الحياة الإنسانية، بل الكائنات كلها، وهو دستور إلهي ، يجعل الإنسان في ضوء توجيهاته حياته الفردية والجماعية نموذجيةً، ويقدم من خلالها نموذجا كاملا للإنسانية جمعاء، فالقرآن يدعو الناس إلى بناء الحياة الإنسانية، ويمنحه دستوراً خالداً أبدياً لإنجاز غاية خلق الإنسان ، التي تغطي جميع نشاطاته منذ أن خلقه الله تعالى إلى يوم وفاته، وقد أعلن عن هذه الحقيقة في بداية سورة الكهف: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ ٱلْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا. قَيِّماً لِّيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً. مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَداً﴾. (سورة الكهف: ١ – ٣). وقال في موضع آخر: ﴿الم. ذلِكَ ٱلْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾. ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ. وٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنْزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ. أُوْلَـئِكَ عَلَى هُدًى

مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾. (سورة البقرة: ١ – ٥). هذه الآيات تنص على أن الشريعة التي حصلت من كتاب الله تعالى تشتمل على خمسة أركان:

١. القرآن كتاب هداية، للذين يخافون الله تعالى، ولا يتطرق إليه أدنى شك .
٢. الإيمان بالغيب، ولا تكمل حياة الإنسان إلا به.
٣. إقامة الصلاة .
٤. الإنفاق في سبيل الله تعالى.
٥. الإيمان باليوم الآخر.

يحمل القرآن الكريم عنصراً أساسياً في الثقافة الإسلامية، فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، ويمتاز هذا الكتاب السماوي بخصائص عديدة:

١. القرآن الكريم كلام الله تعالى، وهو خالص من كل شائبة إنسانية، أنزله الله بواسطة الملك جبريل عليه السلام إلى محمد صلى الله عليه وسلم بلسان عربي مبين ، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ. نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلأَمِينُ. عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنْذِرِينَ. بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾. (سورة الشعراء: ١٩٢ – ١٩٥).
٢. يتميز القرآن الكريم بخلوده وبقائه . فلا يختص بشعب دون شعب ولا بقوم أو زمن ، بل هو آخر كتاب إلهي ، نزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، ويخلد إلى يوم القيامة، هو منارة نور للإنسانية جمعاء، وقد ضمن الله تعالى لحفظه، فأكد الله تعالى قائلاً : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (سورة الحجر: ٩).
٣. ويتميز القرآن الكريم بشموله جميع شعب الحياة ويغطي جميع

العصور والأزمنة، فلا حاجة إلى كتاب بعده، ولا ضرورة إلى تعاليم سماوية بعد تعاليمه ، إنه يتناول العقيدة والعبادة والاجتماع والمعاملات ، فيوجد فيه أطول آية حول المعاملات.

٤. القرآن الكريم معجزة إلهية، كان العرب الذين يعتبرون أنفسهم عرباً، وغيرهم عجماً، يعتقدون أن كلامهم على آخر مدى من البلاغة والبيان، لكن حينما نزل القرآن الكريم وتحداهم وطلب منهم أن يأتوا بالقرآن أو بعشر سور أو بآية واحدة، فعجزوا عن ذلك تماماً، قال الله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلإِنْسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرا﴾. (سورة الإسراء: ٨٨).

رزق الله تعالى شيخنا الإمام العلامة السيد أبا الحسن علي الحسني الندوي تذوقاً صافياً لفهم القرآن الكريم، وقد أخذ علم التفسير من شيخه مفسر القرآن العلامة أحمد علي اللاهوري، فكانت له نظرة عميقة في اللغة العربية وآدابها والبلاغة والنقد فكشف في خطبه ومؤلفاته كثيراً من النكت العلمية، وله مؤلفات قيمة حول الدراسات القرآنية، منها: النبوة والأنبياء في ضوء القرآن، تأملات في سورة الكهف، تأملات في السور، المدخل إلى الدراسات القرآنية، وجهان للإنسانية وغيرها.

قام الأخ العزيز الأستاذ رسال الدين الحقاني بتدوين الآيات التفسيرية للإمام الندوي باسم: الإفادات القرآنية، الذي طبع في مجلدين ، ولقي قبولاً عاماً، وهو تفسير نفيس للآيات التي تتعلق بالإيمان والحضارة الإسلامية والحياة الاجتماعية، وقد بدأ الآن ترتيبا جديدا لتفسير القرآن الكريم حسب السور، منها سورة الشعراء التي يقدم تفسيرها إلى الأوساط العلمية والدينية، أرجو أن

هذه المجموعة التفسيرية تنال بإذن الله قبولاً عاماً كالإفادات القرآنية، جزى الله تعالى الأخ رسال الدين كل الجزاء، وجعل هذا العمل ذريعةً لكسب حسنتي الدنيا والآخرة بمشيئة الله تعالى.

وقد قام بتعريب هذه الإفادات أخونا العزيز الدكتور محمد فرمان الندوي(أستاذا التفسير والأدب العربي بجامعة ندوة العلماء)، ونشرت هذه الترجمة في مجلة البعث الإسلامي، في حلقات متتابعة، وهي ماثلة للطباعة، ندعو الله تعالى أن يجعل هذه الترجمة مبعث خير و بركة.

وصلى الله تعالى على خير خلقه محمد وعلى آله وأصحابه وبارك وسلم تسليماً كثيرا.

سعيد الأعظمي الندوي

رئيس تحرير البعث الإسلامي ندوة العلماء، لكناؤ

٢٠٢٠/٠١/٢١م

١٤٤١/٠٥/٠٤هـ

توطئة وتمهيد

الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ونؤمن به ونتوكل عليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضلل له، ومن يضلله فلا هادي له، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له ، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ، وسلم تسليماً كثيراً كثيراً، أما بعد .

فإنَّ القارئ للقرآن ـ وهو الكتاب الوحيد الذي حفظ تاريخ الأنبياء وحوادث حياتهم وأخبار دعوتهم ـ يلاحظ باستمرار ووضوح، أن الأنبياء بُعثوا دائماً في بيئة مظلمة خانقة، معارضة لدعوتهم، ثائرة عليها، وبُعثوا في ضعف شديد وفقر تام في الأسباب، وكان كل ما يعتز به إنسان من مال ومُلك وشِيَع وأنصار، والأسباب المادية في جانب أعدائهم، وفي كفَّتهم، وتحت صرفهم، ولم يكن في جانب الأنبياء وكفتهم إلا الإيمان القوي الذي لا يرقى إليه شك، والإخلاص الكامل الذي لا يشوبه طمع ونفاق. واعتماد على الله وابتهال إلى الله، واطِّراح على عتبة عبوديته، والعمل الصالح، والتقوى، وحسن السيرة، والأخلاق الفاضلة، وزيادة إلى كل ذلك ـ زيادة لا يستهان بقيمتها ـ الدعوة الإيمانية الصحيحة التي تكفَّل الله بنصرها ، فقال : ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾ (سورة الغافر:٥١) ، وقال : كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (سورة المجادلة: ٢١)، وقال: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ، إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾ (سورة

الصافات:١٧١ـ١٧٢).

شيء مقصود ومطرد مستمر :

ويبدو لقارئ القرآن أن ما حكاه الله تعالى من قصص الأنبياء والرسل وأخبار دعوتهم ، وما لقيته من معارضات ومحاربات ومؤامرات، وتألب القوم عليها ، وتنمّرهم لها ورميهم عن قوس واحد ، والحرب الشعواء كانت تقع دائماً بين ضعيف فقير أعزل، وبين جماعة غنية قوية قاهرة، تملك جميع الأسباب، أو ملك مستبد طاغية، ثم النتيجة واحدة دائماً ، وهو انتصار الدعوة النبوية وأصحابها على ضعفهم و فقرهم ، وهلاك الأغنياء الأقوياء والملوك الجبابرة رغم قوتهم وبطشهم، أوخضوعهم لهذه الدعوة أو قبولها لها ، ويبدو لقارئ القرآن أنه شيء مقصود ليس من المصادفات ـ وقدرة الله المحيطة الشاملة لا تعرف المصادفات ولا تعرف البخت والاتفاق، وإنما هي منطق الضعفاء الجهلاء ـ وأنه شيء مطرد مستمر، وأنها دعوة إلى الإيمان بالقدرة الكاملة التي خلقت الأسباب ، ولا تزال تملكها وتصرفها كيف تشاء، وتشغلها متى تشاء، وتعطلها متى تشاء، وأنها لم تعطل ولم تضعف بعد أن خلقتها ، ولم تتخل عنها بعد أن ملكتها من إرادت، وأنها ليست في الخلق والإبداع والنصر والغلبة في حاجة إلى الأسباب ، إنه دعوة إلى الإيمان بقوة الحق وصلاحيته للبقاء، وبضعف الباطل وسخافته وتهيُّئه للانكسار والاندحار: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ (سورة سبأ :٤٩)، بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ (سورة الأنبياء: ١٨)، وقال :﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ﴾ (سورة الرعد:١٧).

تشجيع على التجربة وإطماع في رحمة الله :

وهذا النمط من القصص القرآنية دعوة إلى التوكل على الله ونصره، وإن اختلف الزمان والمكان، والاعتماد على الدعوة وحسن السيرة والعمل الصالح، وإن اكفهر الجو ، وقسا الزمان، وإن معجزات النصر وعجائب القدرة الإلهية تتكرر، فإذا ذكر القرآن ما أكرم الله به الرسل من النصر والفتح المبين، وقبول الدعاء والغلبة على الأعداء ذَكَر ما يشجع أتباعهم والحاملين لدعوتهم على هذه التجربة، ويُطمعهم في رحمة الله، يقول بعد ما ذكر ما أكرم الله به نبيه أيوب :﴿رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ (سورة الأنبياء: ٨٤)، ويقول عن يونس : ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (سورة الأنبياء: ٨٨)، ويقول: ﴿سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ، إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (سورة الصافات :١٢٠ - ١٢١)، ويقول : ﴿سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ ، إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (سورة الصافات : ١٣٠ـ ١٣١)، ويقول بعد ما يذكر قصة لوط : ﴿ نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ﴾ (سورة القمر : ٣٥) .

ولذلك لم تكن هذه القصص التي تكوّن جزءاً كبيراً من القرآن قصص فكاهة وتسلية، أو مادة معلومات تاريخية، إنما هي موعظة وذكرى، وحث ودعوة وإرشاد وتوجيه، وتقوية وتشجيع: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ، مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (سورة يوسف:١١١)، وقال: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (سورة هود : ١٢٠).

سنة الله مع جميع أنبيائه :

لقد كانت هذه سنة الله مع جميع أنبيائه، فنوح يقول له قومه: ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ (سورة الشعراء: ١١١)، ويقول مبتهلاً إلى الله مستغيثاً على ضعفه : ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ (سورة القمر :١٠)، ولوط يقول لقومه :﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ (سورة هود :٨٠).

وشعيب يقول له قومه :﴿مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ (سورة هود:٩١)، وفرعون يقول عن نفسه وعن موسى في صراحة ووقاحة: ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلاَ تُبْصِرُونَ، أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ، فَلَوْلاَ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلاَئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ (سورة الزخرف: ٥١- ٥٣) .

أما أممهم التي بُعثوا إليها فقد كانت ذات الطَّول والحول وذات العُدَّة والعتاد وذات الزروع والضروع، وقد مر قول هود عليه السلام لقومه : ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ، أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ، وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ (سورة الشعراء :١٣٢- ١٣٤)، وقول صالح لقومه : ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ، فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ، وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ، وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾ (الشعراء :١٤٦- ١٤٩)، وقول شعيب لقومه : ﴿إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ﴾ (هود : ١٨٤)، ولكن ماذا كانت النتيجة؟ اقرؤوها مجموعة في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ (سورة الأنعام: ٦) .

بسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الشعراء

﴿طسم﴾ ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾، ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾، ﴿إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾، ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلاَّ كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾، ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾، ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾، ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلاَ يَتَّقُونَ﴾، ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾، ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلاَ يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ﴾، ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾، ﴿قَالَ كَلاَّ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾، ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾، ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ ، ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ ، ﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾، ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾، ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلاَ

تَسْتَمِعُونَ﴾، قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾، ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾، ﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ، ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾، ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ﴾، ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ، ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ ، ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾، ﴿قَالَ لِلْمَلإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾، ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾، ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾، ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾، ﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾، ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ﴾ ، ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾، ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ ، ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾، ﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾، ﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾، ﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾، ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾، ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾، ﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾، ﴿قَالُوا لاَ ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾، ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾، ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾، ﴿إِنَّ هَؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾، ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ﴾، ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾، ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾،

﴿وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾، ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، ﴿فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ﴾، ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾، ﴿قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾، ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾، ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ﴾، ﴿وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ﴾، ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾، إ﴿نَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾، ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾، ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾، ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾، ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ﴾، ﴿أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾، ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾، ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾، ﴿أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ﴾، ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾، ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾، ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾، ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾، ﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾، ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾، ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾، ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾، ﴿وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾، ﴿وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ ، ﴿وَلاَ تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ ، ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ﴾، ﴿إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾، ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾، ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾، ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ (٩٢) ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ﴾، ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ، ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ ، ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾، ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ، ﴿إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

﴿وَمَا أَضَلَّنَا إِلاَّ الْمُجْرِمُونَ﴾، ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾، ﴿وَلاَ صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ ، ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ، ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ ، ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلاَ تَتَّقُونَ﴾، ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾، ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾، ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾، ﴿قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾، ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، ﴿إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ ، ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾، ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾ ، ﴿فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ، ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ، ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ﴾ ، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ، ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ﴾ ، ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلاَ تَتَّقُونَ﴾ ، إ﴿نِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ ، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾، ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، ﴿تَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾، ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ ، ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾، ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ ، ﴿أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ﴾ ، ﴿وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ ، ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ ، ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ ،﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾، ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ

أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ، ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ ، ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلاَ تَتَّقُونَ﴾ ، ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ ، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ ، ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ، ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ﴾ ، ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ ، ﴿وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ، ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾ ، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ ، ﴿ولاَ تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾ ، ﴿الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ﴾ ، ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ ، ﴿مَا أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ، ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ ، ﴿ولاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ، فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾ ، ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ، ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ ، ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ ألاَ تَتَّقُونَ﴾ ، ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ ، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ ، ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ، ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ ، ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ ، ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ ، ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ﴾ ، ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ ، ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾ ، ﴿إِلاَّ عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾ ، ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ﴾ ، ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ ، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ، ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ ، ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلاَ تَتَّقُونَ﴾ ، ﴿إِنِّي

لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ ، ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ، ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾، ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ ، ﴿وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ ، ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ﴾ ، ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ ، ﴿وَمَا أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ ، ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ، ﴿قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ، ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآَيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ، ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ، ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ﴾ ، ﴿عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ ، ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ ، ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ﴾ ، ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ﴾ ، ﴿فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ ، ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ ، ﴿لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ ، ﴿فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾، ﴿فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ﴾ ، ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾، ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ﴾ ، ﴿ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ﴾، ﴿مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾ ، ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ لَهَا مُنْذِرُونَ﴾ ، ﴿ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ، ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾، ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ، ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ ، ﴿فَلاَ تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾ ، ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ ، ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ

الْمُؤْمِنِينَ﴾ ، ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ ، ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ﴾ ، ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ ، ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ، ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ﴾ ، ﴿تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ ، ﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ ، ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ ، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ ، ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ﴾ ، ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ .



تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم ووعيد المكذبين

﴿طَسم﴾. ﴿تِلْكَ آيَاتُ ٱلْكِتَابِ ٱلْمُبِينِ. لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ. إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ. وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلاَّ كَانُواْ عَنْهُ مُعْرِضِينَ. فَقَدْ كَذَّبُواْ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ. أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ. إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ. وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾. (١ – ٩).

الحروف المقطعات أسرار إلهية :

﴿طسم. تِلْكَ آيَاتُ ٱلْكِتَابِ ٱلْمُبِينِ﴾.

طسم. وردت هذه الحروف في بداية كثير من السور، أمثال: الم. المر. طسم وغيرها، وتعرف في المصطلح بالحروف المقطعات، (وقد كُتب عنها كثيراً)، وهي أسرار إلهية، (فلا حاجة فيها الآن إلى بحث مفصل)، بل الحاجة ماسة إلى الإيمان بالغيب والاعتقاد بإعجاز القرآن الكريم، فكأنها نوع من الامتحان أيضاً.

قال الله تعالى: طسم. أودع الله تعالى في الحروف أسراراً، كما أودع فيها خواص، وأودع فيها آثاراً، وكل ما يحدث في العالم يقع بالحروف، مثلاً يقال لأحد: اقتل فلاناً، فيقتل، أو أعطِه شيئاً، فيُعطى، ويجري هذا العمل بالإشارات أو بالأعمال، كل ذلك نتيجة للحروف، وتارةً تؤدي الحروف دوراً هاماً لا يقوم به أي صورة عملية أو شكل تمثيلي .

فهذه الحروف للتبرك أيضاً، ويمكن أن الله قد أودع فيها بركات كذلك، فكانت في تركيبتها الخاصة وفي قراءتها الجميلة، وكان لها عند الله قيمة كبيرة، فيصدر منها معنى خاص، فتحمل هذه الحروف مثل هذه المعاني، (وقد كتب القدماء حولها كثيراً، وسُلّط عليها الضوء في كتب التفسير المعاصرة أيضاً، فلا يمكن ذكر تفصيلها الآن)، قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ ٱلْكِتَابِ ٱلْمُبِينِ﴾، فليس هذا الكتاب واضحاً فقط، بل مُوضحاً ومبيناً أيضاً، وتستعمل في اللغة العربية كلمتان: المبين والبائن، فمعنى البائن: الواضح فقط، ومعنى المبين: الواضح والموضح. ﴿فتِلْكَ آيَاتُ ٱلْكِتَابِ ٱلْمُبِينِ﴾.

تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم:

﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾.

إن ما جُبل عليه سيد المرسلين وخاتم النبيين صلى الله عليه وسلم بوجه خاص، والأنبياء الآخرون عليهم السلام بوجه عام، من تفجع للإنسانية، وما فُطروا عليه من انطباع تألّمي برؤية الشيئ الفاسد لم يتوافر لكل إنسان، بل قد يناله أفراد قلائل من الناس، وإن الأنبياء كانوا متمكنين من أعلى درجة فيهم، فإنهم ينظرون إلى هذه الحقيقة أن الله تبارك وتعالى يُعصى ويُكفر، ويُتلى عليهم كلام الله، ولا يؤثر فيهم، فإنهم يتأثرون بهذا المنظر تأثراً لا يمكن التعبير عنه في صورة من الألفاظ. فاستعمل له القرآن الكريم كلمة جامعة ليست فوقها كلمة: وهي باخع، معناه ألا يمكن لك أن تصبر على هذا؟ ﴿أَلاَّ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾. كأن الله تعالى يقول: انظروا: أنا الخالق، أنا الرحمن والرحيم والرزاق، وقد رزقناكم كل نوع من النعم، وأنا أرى أن الناس يكفرون علناً، ويرتكبون المعاصي، ولا

يذكرون اللّه تعالى، بل يستهزؤن به، وأنا أحلم عنه وأصفح. فكأن اللّه قام بتسلية النبي صلى اللّه عليه وسلم مخاطباً إياه: لا بد لك أن تتحمل .

وعيد المكذبين:

﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾.

لو كان نزول آية من السماء لكان خرقاً للعادة، وغير طبيعي وأمراً قاهراً، وشأن الإيمان اختياري، ومرتبط بالعقل والفكر، وله صلة بحكم الإنسان وقضائه، فلو أنزل اللّه آيةً منه لحدثت زلزلة أو وقعت صاعقة، بحيث إذا لم يؤمنوا لا تنتهي الزلزلة، أو نزلت آية من الآيات السماوية أو الآفاقية، فلو آمنوا بها ما كان ذلك منهم فضلاً، وما استحقوا بثواب أو أجر من اللّه تعالى، لأن الإنسان يكون مضطراً بعد مشاهدته، ومستعداً لكل ما يطالب به منه، كلا، فإذا اختاره الإنسان بإرادته وخياره وحرية عقيدته وعمله كان ذلك دليلاً على إيمانه، وعلامةً لاستجابته قلبياً، ولإيمانه بطمأنينة نفسه وإرادته وخياره، وإذا لم يكن شيئ منهما (مثلاً إذا صرعه أحد وجلس على صدره، وبدأ يخنق عنقه، وقال له: هل أنت تؤمن أم لا؟) فليس هذا إيماناً، هذا نوع من الاضطرار، فإذا تُرك وخلي سبيله وخرج من هنا بدأ يثرثر ضد الإيمان. فقال اللّه تعالى: إن نشأ ننزل آية من السماء، وكنا قادرين عليه، لكن لا نفعل هذا قصداً.

نكتة لغوية :

فظلت أعناقهم خاضعين: انظروا إلى كلمة "أعناق" تستعمل لها صفة: وهي أعناق خاضعة، لأنها من غير ذوي العقول، لكن كلمة "خاضعين" لها مناسبة بذوي العقول (الإنسان)، أي خضعت

أعناقهم بفهم وعقل، وهذا عمل ذوي العقول، (لم تستعمل كلمة في القرآن زائدة أو لمجرد سجع). أي خضعت أعناقهم أمامها كما يخضع أصحاب العقول أعناقهم بعقل وتدبر.

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلاَّ كَانُواْ عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾.

اختار الله هنا كلمة الرحمن من أسمائه الحسنى وصفاته العليا، لأنه الرحمن، فإذا وجهت إلى الناس موعظة جديدة منه كان من اللازم بصفته الرحمن ووضوح موعظته الجديدة وتأثيرها أن يؤمنوا به، لكن هذا يدل على كفرانهم لله تعالى ونسيانهم لمنه وفضله عليهم أنه إذا نزل من الرحمن ذكر، ونزل بقوة جديدة ونضارة جديدة كانوا معرضين عنه.

﴿فَقَدْ كَذَّبُواْ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

الفرق بين الخبر والنبأ :

ليس معنى الأنباء الخبر فقط، بل هناك فرق بين الخبر والنبأ، والخبر هو ما يحصل منه علم ضئيل، أو (يطلع الإنسان على واقع)، لكن النبأ هو ما يحصل منه التذكير والتنبيه، فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزءون.

وتأتي هذه الأمور كلها في صورة الآيات، قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾.

تناولت كلمة "كريم" المعاني الآتية: الحسن، الثمين، المفيد، والجميل في الرؤية، والخضر.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾.

وقال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

جامعية صفات العزيز الرحيم:

اختيرت من صفات الله تعالى العزيز، الرحيم، فمعنى العزيز هو القادر، والغالب والقاهر، لكنه مع ذلك الرحيم، فلو كان غالباً فقط أهلك الناس، ولم يبق لهم عين ولا أثر، فإن وجود العزيز مع الرحيم أفاد صفةً جامعةً بين الغلبة والرحمة، فإنه يجمع الرحمة مع الغلبة، ويجمع الغلبة مع الرحمة، وبعض الرحمات تكون خاليةً من الغلبة، يقول الناس: إن لم يفعل هذا فماذا يفعل، إن لم يعفُ فمتى يقدر عليه؟ هذا ما تتضمنه كلمة الرحمة فقط، وتحمل كلمة الغالب أنه عزيز فلا يرحم، فإذا كان العزيز الرحيم، رحم أينما شاء، وعز أينما شاء.

ولا شك أن جميع نشاطات الإنسان، وجميع ما حدث في التاريخ الماضي وما يحدث في العصر الحاضر فردياً أو جماعياً، إذا دققنا النظر في ذلك عرفنا أن نتائج الأعمال تظهر إما في صورة مظاهر الغلبة أو في أشكال من مظاهر الرحمة .



الصراع بين الحق والباطل
في ضوء قصة موسى وفرعون

إرسال نبي إلى أعدى عدو:

﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ. قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ﴾.

نعرض عليكم اليوم لوحةً جميلة أخرى من الدعوة النبوية دعوة سيدنا موسى عليه السلام الدعوة التي كلف بها، إنها لا تختلف عن دعوات الأنبياء الآخرين عليهم الصلاة والسلام في الأسس وفي الأهداف وفي الأجزاء الرئيسية، الدعوة إلى الله، والدعوة إلى التوحيد، والدعوة إلى الإيمان بالبعث والنشر، وبالحياة الآخرة، والإيمان بصفات الله والحقائق الغيبية، ولكنها تختلف في جانب واحد، وهو أن هذه الدعوة اقترنت بها مهمة إنقاذ بني إسرائيل من عذاب فرعون ومن اضطهاده.

إن الأوضاع التي وُلد فيها سيدنا موسى عليه السلام وعاش فيها، والأجواء والملابسات التي اقترنت به جعلت مهمة تختلف عن مهمة الأنبياء الآخرين عليهم الصلاة والسلام أجمعين اختلافاً يسيراً، وهو أنه كلف أن يقول لفرعون كلمةً صريحةً: إنه جبار، وقد تسلط على بني إسرائيل أولاد الأنبياء المؤمنين بالله والمؤمنين بعقيدة التوحيد وحدهم في ذلك العصر، لم تكن القضية قضية أمة من الأمم ولا قضية مجموعة بشرية من المجموعات الكثيرة التي يزخر بها العالم، ولا تزال هذه المجموعات على وجه الأرض، لو كانت قضية أمة،

مضطهدة، قضية أمة تسلط عليها جبار سخر الأمة ليقضي مآربها وأخذها بالسخرة الظالمة والقسوة البالغة وبالاضطهاد الديني لكان أمراً يسيراً، فهذا يقع كثيراً، وقع في كل فترة من فترات التاريخ، وسيقع في كل حقبة من أحقاب الزمان.

كانت هذه الأمة هي الأمة الوحيدة التي كانت تؤمن بالله إيماناً صحيحاً على علاتها، وعلى ما كانت تعاني من أدواء خلقية ودينية كذلك، ولكنها كانت هي البقية الباقية التي تؤمن بالله إيماناً صحيحاً، تؤمن بالتوحيد، وهي الأمينة على عقيدة التوحيد.

هذا هو الجانب الذي يميِّز دعوة موسى عن دعوة الأنبياء الآخرين، وكان موقفاً حرجاً، لماذا؟ لأن لسيدنا موسى قصة، قصة فريدة، وحياته حياة من طراز آخر.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ﴾:

يجب الملاحظة أن الله سبحانه أرسل سيدنا موسى الذي هو حبيبه وصفيه إلى رجل هو أكبر عدو له، يعني هنالك نسبة المضادة، نسبة التفاوت العظيم الذي لا يقوم بين رجلين عاديين، إنما يقوم بين رجلين هما على طرفي النقيض، أحب عباد الله إلى أبغض عباد الله، أعظم الرسل في عصره، يرسل إلى إنسان قد تحدى القدرة الإلهية، وقد تحدى الكبرياء الإلهية، وقد جاء في الحديث القدسي: الكبرياء ردائي، من نازعني ردائي قصمته،[1] وقد بلغ من التحدي ومن الوقاحة ومن الجراءة على الله لآخر نقطة. فقال: أنا ربكم الأعلى، فيرسل الرسول الذي يكرم بالرسالة ويكرم بالاصطفاء وبالكلام وبالمناجاة مع الله تبارك وتعالى، ويرسل إلى أكبر عدو اقترف أكبر ذنب، ثم قد ضم إلى ذلك أنه ادعى الألوهية: قال: أنا ربكم الأعلى،

[1] - روى مسلم عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة :٢٦٢٠ وأبو داود في سننه : ٤٠٩٠.

فيرسل الله تبارك وتعالى مثل هذا الرسول الكريم إلى هذا العدو البغيض الرجيم.

كيف دخل بنو إسرائيل في مصر ؟

قد ولد سيدنا موسى عليه السلام في مصر، وقد انتقل عدد كبير من بني إسرائيل (ذرية يعقوب عليه السلام) إلى مصر، هذه قاعدة وهي أن الناس إذا هاجروا إلى بلد (كما يهاجرون إلى أوربا وأمريكا وكندا، وهناك مئات من الناس، بل آلاف من الناس إذا سئلوا قالوا: هاجرنا من أوطاننا لكسب الاقتصاد وطلب المعاش) فلا عجب، لأن تاريخ آلاف من السنين يدل على أن كثيراً من ناطقي اللغات الأخرى، والأجيال المتعددة في البلدان الراقية المتطورة قد تركوا أوطانهم، وهذا يوافق طبيعتهم، فكل مكان يكون العشب والكلأ يسرح إليه الحيوان، وكل موضع يكون فيه الماء يأتي إليه السمك .

فكان في مصر عدد هائل لبني إسرائيل، يستغربه سكان مصر، ويعاملون معهم معاملة الأجانب الذين وردوا من بلد آخر، ولم يكن لهم حق للعيش في مصر، وبما أن بني إسرائيل وردوا من كنعان، وازداد عددهم في مصر، وكان فرعون قبطياً، وكان يعتقد أن القبط شعب مستقل، وبنو إسرائيل شعب آخر، والقبط هم الطبقة الحاكمة التي خلقت للسيادة، أما بنو إسرائيل فهم من المماليك الذين خلقوا للاستعباد، فكان الأقباط يعتقدون أن يوسف قد اشتراه عزيز مصر، وهو من كنعان، فلما تقلد يوسف عرش مصر دعا أباه وذريته من كنعان، فانتقل بنو إسرائيل من كنعان إلى مصر، وسكنوا فيها، فاستعبد هؤلاء الأقباط بني إسرائيل، وكانوا يستخدمونهم في الأعمال الشاقة، ويستضعفونهم، ولا

يقدرون لهم قيمة، ولا يجلسونهم جنباً بجنب على الكراسي، فكان بنو إسرائيل يعيشون عيشةً ذليلةً مهانةً في مصر.

وبما كانت هناك أسباب للاقتصاد وطلب المعاش، فصار ذلك (وإن الهجرة من مكان إلى مكان بكامل الأسرة تكون بوجه عام صعبةً، يبني الإنسان المسكن، ويشتغل بالزراعة، وتكون لها مصالح كثيرة) قضية مهمة لأن الأقباط كانوا حاكمين، وكان فرعون ملكهم، وكان ظالماً، وقد ثبت من التاريخ أيضاً أن فرعون قد ادعى الألوهية، وكان يعتبر نفسه إلهاً، فقال الله تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ. قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ. قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾. أو لم يكن سفرنا إليه نافعاً، وتحدث مشاكل أخرى، فقال: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلاَ يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ. وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾.

خروج موسي عليه السلام من مصر:

هذا يشير إلى أن موسى عليه السلام نشأ وترعرع في بيت فرعون، ثم خرج من هنا بدون إذن منه، ووقع صدفةً موت قبطي، كان من شعب ملكي أو أسرة ملكية، ذكرت هذه القصة في سورة القصص مفصلة: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلاَنِ هَـٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَـٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَٱسْتَغَاثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَـٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ (سورة القصص: ١٥).

مرةً دخل موسى عليه السلام وارداً من جهة في حدود مصر، بحيث كان أهلها في غفلة، رأى أن رجلين يقتتلان كما يقتتل رجلان، أخذ أحدهما بتلابيب أحد، أو ضغط الآخر، وكانا ينتميان إلى نوعين من الجنس، كان أحدهما من قوم موسى عليه السلام، و

ثانيهما من الأقباط من أعداء موسى عليه السلام، ولما رأى رجل من قوم موسى إياه، ناداه ظناً منه، وكان ذلك حسب الفطرة، ذاك أنه لما رأى موسى عليه السلام ظن أن بينهما نسبة مشتركةً أو قوميةً مشتركةً، فينصره، فاستغاث من موسى، ولم يكن في وسعه أن يتكلم، أو يقول: إن الإسرائيلي كان مضغوطاً عليه، وقد أخذه القبطي، وكان الإسرائيلي محاطاً بأشد خطر، أو أن الإسرائيلي يظن أنه من شعب إسرائيلي، فلم يناده القبطي لنصرته أي أن أحداً يستطيع أن يسأل: لماذا تكلم واحد منهما؟ فلم يكن له إلا سببان فقط، وأنتم تعرفون أن الإنسان يعرف بصورته القومية وإن كان في خضم آلاف من الناس، لكن هذا شيئ مشترك، على كل حال فإن الإسرائيلي ظن أن موسى سينصره فناداه، وقال: إن القبطي ضغطني وهو يظلمني، فوكز موسى عليه السلام هذا القبطي الظالم، فمات صدفةً، رغم أن موسى لم يكزه للقضاء على حياته، لكن هذه الوكزة كانت من نوع جديد، يمكن أن يقع أثره لا على القبطي فقط، بل على الأقباط العائشين في مصر. فوكزه موسى فقضى عليه.

كان من حكمة الله تعالى أن يكون موسى عليه السلام نبياً، وتوجد في النبي خصائص قبل نبوته، لأنه يحاسب كل شيئ، فندم موسى عليه السلام أن الأمر قد تفاقم، ولو كان مكان موسى عليه السلام أحد لا يندم شيئاً على ما فعل، لأن المقتول كان من شعب آخر، ومن ذرية أخرى، وكان يظلم أيضاً، وكان يعلم أنه غالب، فلم يكن عليه أثر للندم، فعدلنا، ونصرنا أخاً لنا، لكن من حكمة الله تعالى أن يكون موسى نبياً، وكان من تأثير هذه النبوة أن موسى عليه السلام نسب هذا العمل إلى الشيطان: ﴿هَـٰذَا مِنْ عَمَلِ

ٱلشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾.

أشار موسى عليه السلام إلى هذه القصة أن عليَّ ذنباً، أو أن معي تخوفاً، وكان يتذكر هذه القصة أن الناس قد عرفوا، فجاء أحد وقال: لا تمكث هنا، اخرج من هنا، لأن القوم يأتمرون بك، فيقتلونك. فقال موسى عليه السلام: ولهم علي ذنب أي أني قد صدر مني قتل قبطي، فلا يسمع الناس بكلامي، ولا ينظرون إليّ نظرة عدل، ويعتبرونني خصماً وقاتلاً لرجل من قومهم.

صيانة عصمة الأنبياء:

لا بد للداعية الذي يعمل في حقل الدعوة أن يكون إلى حد كبير بريئاً من هذه الأمور، فلا يكن في زمنه السابق ولا في عهده الماضي أو سلوكه مبعث حرمانه من الحقوق (Disqualifacation) أو لا يحدث فيه من اللاأهلية أو الحاجز، بحيث لا يمكن الناس أن يتأملوا في دعوته تأمل عدل وسعة نظر.

وقد راعى الله تعالى ذلك في سير الأنبياء عليهم السلام، وذلك لأن الأمور التي لها علاقة بعلم الاجتماع والتي تكون مسجلة لا تتكرر مرة ثانية، انظروا إلى سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، فقد قضى قبل نبوته حياةً لا يعاب عليها، فيقول قائل: أنت تأمرنا بالإيمان بالله والتوحيد الخالص، و أنت فعلت ما فعلت، وقلت ما قلت، ولا شك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان بشراً، لكن الله تعالى رغم بشريته قد صانه وحفظه، وهذا نوع من العصمة، وهي عصمة قبل النبوة، فالعصمة تكون للأنبياء منذ نبواتهم، وهي تكون محدودة، ولها نطاق خاص.

ثم لا بد لنبي في هذا العالم أن يعلن على رؤوس الأشهاد أنه عالم بالسنة الراشدة، وأنه معصوم فيما يقوله من الخطأ والضلال،

وكونه مأموناً عن الخطأ في نفسه إنما يكون بخلق الله علماً ضرورياً، فيه بأن جميع ما أدرك وعلم حق مطابق للواقع. ويتحقق عند الناس ويصح عندهم بأدلة كثيرة برهانية أو خطابية أن ما يدعو إليه حق، وأن سيرته صالحة يبعد عنها الكذب حتى لا يشكو فيما إذا كان له في التدبير العالي منزلة عظيمة، وأن نفسه من النفوس القدسية اللاحقة بالملائكة، وأن مثله حقيق بأن لا يكذب على الله تعالى ولا يباشر معصية.

فقال موسى عليه السلام بكل وضوح: يا رب ! إن لي أعذاراً، منها: ضيق صدر، ومنها: عدم انطلاق اللسان، ومنها: ولهم علي ذنب (ذنب قتل القبطي، وهم يعرفونه، وأنا في نظرهم مذنب صريح.: فأخاف أن يقتلون. وبما أن موسى عليه السلام يحمل موقفاً حرجاً، وكان هذا الموقف ضعيفاً، بحيث وقع عليه ذنب دم قبطي، فقال الله تعالى: ﴿قَالَ كَلاَّ فَٱذْهَبَا بِآيَاتِنَآ إِنَّا مَعَكُمْ مُّسْتَمِعُونَ﴾، تأملوا كيف يقول الله تعالى: كلا، لا شيئ، ولا خوف، فاذهبا بآياتنا. وقد سمى موسي عليه السلام هارون، وقبل الله اسمه، وكان ذلك في علم الله تعالى، وكان قدره من قبل، فقال: اذهبا بآياتنا، إنا معكم مستمعون.

ولعل في بعثة هارون مع موسى حِكماً ومصالح لم نتوصل إليها، بعث نبي عامة إلى منطقة، ووكلت إليه مسئولية النبوة، لكن الله تعالى بعث مع موسى سيدنا هارون عليه السلام، فإذا كان الإنسان مطلعاً على أحوال ذلك الزمان، وعارفاً بالأوضاع الاجتماعية، وحاجياته وتجاربه وطرق درايته عرف كل المعرفة سبب إرسال هارون مع موسى عليه السلام، يمكن أن الناس في ذلك العصر بنفسيتهم الخاصة وتربيتهم الاجتماعية وبثقافتهم ومدنيتهم لا

يعبأون برجل واحد، فإنه فرد، قد أصيب بشيئ، أو تخيل شيئاً، فأراد تطبيقه على المجتمع.

بعث موسى عليه السلام لدعوة الناس إلى الله تعالى، ووكّل إليه مسئولية إنقاذ بني إسرائيل، وكلا العملين يتطلبان جهداً ومشقةً بالغين، والدعوة إلى الله عمل مضن، يقتضي إيماناً صادقاً، والصبر على المكاره، والتوكل على الله، والثقة به، كذلك إنقاذ شعب ليس أمراً هيّناً، بل يتطلب جهداً شاقاً، وقد أنشأ مجرد الشعور بهاتين المسئوليتين في موسى عليه السلام تردداً وتلكئاً، لكن الله اصطفاه لهذين العملين العظيمين، ولا يمكن أن يكون رجل آخر أحق وأجدر بهما من موسى عليه السلام، فأمره الله تعالى أن يبدأ عمل الدعوة إلى الله.

الجهر بالحق في بلا ط فرعون:

كانت على موسى عليه السلام مسئولية مزدوجة، مسئولية إبلاغ رسالة الحق ودعوة فرعون إلى الله الواحد القهار الذي ليس له شريك في الملك، ومسئولية إنقاذ بني إسرائيل وإطلاق سراحهم، لأن بني إسرائيل رغم ضعفهم في القيم الخلقية والدينية، وانحطاطهم في المعاملات هم البقية الباقية الذين يحملون الإيمان بالله في معنى الكلمة ويرثون عقيدة التوحيد ويحفظونها.

قال الله تعالى: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولاَ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾، فيها نوع من البلاغة، فإن مصاحبة موسى وهارون عليهما السلام دليل على أن موسى أصل، وهارون تابع له، وكلاهما متحدان في شريعته ورسالته ليس فيهما تنوع، فإنهما أصبحا متحدين في إبلاغ رسالة الله والدعوة إليه، كالجسد الواحد، مثل ما نقول: روح واحدة وجسمان، وإن كان السياق يقتضي تعبير: إنا رسل رب العالمين،

لكن قال: إنا رسول رب العالمين، فإنهما بجسديهما رسول رب العالمين .

هذه الكلمات ليست مصادفةً، فإذا كانت دراستنا واسعةً على أحوال زمن نزول القرآن، والبيئة التي نزل فيها، وإذا كانت عادات وحضارة ذلك العصر وطرق الفهم والدراية في خزانة معلوماتنا عرفنا أن كل كلمة في هذه الآية فصوص، لا يعادلها شيئ آخر.

مطالبة إنقاذ بني اسرائيل:

أن أرسل معنا بني إسرائيل. جئنا بهذه الرسالة أن أرسل معنا بني إسرائيل وأخلصهم من ظلمك، كان بنو إسرائيل يُعتدى عليهم، هؤلاء بنو إسرائيل كانوا من ذرية الأنبياء، وكان آباؤهم وحدهم حاملي عقيدة التوحيد وورثتها، وكانت في عروقهم دماء الأنبياء، لم يكن الأمر إلى أن بني إسرائيل كانوا يؤطأون بحوافر أفراس فرعون وملئه، وكانوا على إشارة من ظلم حاكم وظالم. بل الواقع أن بني إسرائيل كانوا حاملي عقيدة التوحيد وأمناء ميراث النبوة، وكانوا يحملون تلك الأمانة التي كانت مجموعة تعاليم الأنبياء السابقين. وإن ما جاء في القرآن الكريم مكرراً ومؤكداً: يا بني إسرائيل! اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين، فكان سببه كما يعرف من دراسة التاريخ أن عقيدة التوحيد إذا كانت عند قوم في أي زمن كانت عند بني إسرائيل، هذا سبب فضيلتهم وشرفهم.

انظروا إلى أن أكبر شرف للإنسان أن يكون موحداً، فليس عند اليهود في هذا الشأن ضعف واستكانة، ولا اضطراب كما يكون في النصارى، لأن النصارى أكثر شركاً من اليهود، فكان بنو إسرائيل رغم مفاسدهم وانحطاطهم في الأخلاق والدين

متمسكين بعقيدة التوحيد، في كل زمان إلى حد كبير، وتوجد الآن عقيدة التوحيد في اليهود في هذا العصر، رغم جميع معايبهم التي تتفاقم أحياناً في شعوب أخرى.

ذكر المفسرون سبب تكرار فضيلة بني إسرائيل على أمم العالم، كما تناوله الباحثون الجدد، وقد كتب ذلك المفسر الشيخ عبد الماجد الدريابادي (رحمه الله تعالى) أنه قد مر زمن لم يكن يعرف من عقيدة التوحيد شيئاً إلا اليهود، فقد أشعلوا مصابيح التوحيد في ظلمات الوثنية والشرك. فأُمر موسى عليه السلام أن يعلن بكل صراحة أمام فرعون: أنه ظالم وقاهر، فقد اعتدى عليهم، وتغلب على بني إسرائيل، ويطالب منه بأن يخلص بني إسرائيل من ربقتهم .

منٌ فرعون على تربية موسى ، و تهمته:

﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ. وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ﴾. لعلكم تعرفون أن موسى حينما وُلد فصدر أمر من حكومة الأقباط وفرعون: إذا ولد وليد لبني إسرائيل اقتلوه، حتى تكون إبادة تامة لبني إسرائيل، ولا تتيسر لهم فرصة التوالد والتناسل، وكانت هناك خلافات مدنية، أو عقدية، وكان فرعون إلهاً بنفسه، وكان بنو إسرائيل يؤمنون بالله، فكانت هناك خطة كاملة، بل قضاء أن لا يتكاثر عدد بني إسرائيل، فأمرت جهات الأمن ورجال المخابرات (Intelligence) حسب المصطلح المعاصر أن وليداً إذا وُلد فلا يترك حياً، بل يقتل على عجل. لكن الله تعالى خيّب آمال رجال الحكومة، وولد موسى عليه السلام .

حينما ولد موسى عليه السلام في بيئة مظلمة قاتمة، خانقة بل

قاتلة للإنسان، ألقى الله في روع أمه أن تضعه في التابوت ثم تلقيه في اليم، والله حفيظ عليم. فتوكلت أم موسى على الله، وألقت رضيعها في اليم، لكن أمر الله كان قدراً مقدرواً، فوقع عليه بصر أحد من أسرة فرعون، أو كما يقال: زوجة فرعون، فأخرج التابوت وفتح فإذا به غلام جميل يتبسم، ولم يكن لفرعون ولد، فقالت له زوجته: قرة عين لي ولك، لا تقتلوه، وكان من حكمة الله تعالى أن موسى سيكون نبياً، فأفاض الله عليه جمالاً ورونقاً وبهاءً، تشعر به النساء كثيراً، فلما رأته امرأة فرعون قالت له: قرة عين لي ولك، انظروا هذا الغلام الجميل، لا تقتلوه، فغلبت هنا البشرية والفطرة الإنسانية على المصلحة السياسية والطراز السياسي (لا يولد في بني إسرائيل ولد يكون سبباً لانتهاء شوكة فرعون). فقهرت الفطرة الإنسانية وخاصةً الفطرة النسوية هنا كل شيئ، لأنه قد اجتمعت هنا الفطرة الإنسانية والفطرة النسوية. قالت له زوجته: قُرَّةُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ لاَ تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً (القصص: ٩). ثم كان ما شاء الله، وباءت مساعي فرعون بالفشل، فعاش موسى عليه السلام في القصر سنوات، ونال من العطف والرعاية أثناء نشأته، حتى خرج موسى من القصر، ووقع من إهلاك قبطي كان من الأسرة الملكية أو من الشعب الملكي، فترك قصر فرعون وذهب إلى غايته.

تذكر فرعون، حينما رأى موسى عليه السلام، وعرفه بأسارير وجهه أو من جهة أخرى، وقال: ألم نربك فينا وليداً، ولبثت فينا من عمرك سنين، وجرت هذه السلسلة إلى أن تم قتل القبطي، فأشار فرعون إلى ذلك وذكره قائلاً: وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين.

اعتراف موسى عليه السلام بالجريمة والصدع بالحق:

لم يغضب موسى عليه السلام من كلام فرعون، ولم يكذبه ولم يعتذر إليه، بل أجاب بكل تؤدة وووقار: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذاً وَأَنَاْ مِنَ ٱلضَّالِّينَ. فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْماً وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ. وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِى إِسْرَائِيلَ﴾ (سورة الشعراء: ٢٠ – ٢٢) لم يأت إلي من الله الوحي والهداية الربانية حينما قتلت قبطياً، وكان موت القبطي من دون إرادة، ما تعمدت قتله، هذا ما أشار إليه فرعون: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ (الشعراء: ١٩) هذا التهديد الفرعوني أو التنبيه الملكي قد أنشأ في نفس موسى نوعاً من التردد، فأبداه موسى عليه السلام بنفسه: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْماً وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ .

خرج موسى عليه السلام من مصر متجهاً إلى مدين مروراً بجزيرة سيناء، لأن مدين كانت خارج سلطنته، خرج هارباً ونجا بنفسه حتى أوى إلى ظل شجرة، ثم يصل هو إلى سيدنا شعيب عليه السلام، فيتمتع بضيافة كريمة وزواج مرضي، وبعد ما أكمل مدته يرجع إلى مصر، فنودي من جبل الطور، وكلم الله تكليماً وأكرم بالرسالة الإلهية. كما ورد ذلك مفصلاً في سورة القصص حيث إن موسى عليه السلام يشعر ببرودة فيحتاج إلى النار، فيرى لمعاناً، يقول لأهله: امكثوا حتى آتي بجذوة من النار، فذهب فأكرم بالنبوة.

فقال موسى عليه السلام: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْماً وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ. وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِى إِسْرَائِيلَ﴾.

أنت تمنُّ علي يا فرعون ! بتربيتي، ولا تفكر فيما أنني كيف

وقعت في يدك، وكيف أمكنك أن تربيني، إذا لم تأمر بقتل أولاد بني إسرائيل ما ألقتني أمي في البحر، فهل هذه منة تذكر وتشكر بجنب اعتداءاتك وشدائدك، وأنت قد استعبدت جميع أفراد بني إسرائيل وألقيتهم في مصائب تترى، فما قيمة هذه المنة بأنك تكفلت بوليد وربيته، وكانت هذه التربية على سوء الفهم والخطأ، فهذه منة ينبغي أن تذكر، وقد استعبدت بني إسرائيل.

وتأتي أمامنا قطعة من القرآن فيها امتحان لسيدنا موسى كنبي ملهم، كداع حكيم يجمع بين الغيرة على هذه الدعوة وبين الفقه الدقيق العميق لها، ولابد أن يكون النبي هو الأسوة والمثل الكامل في منهاج الدعوة، هذه هي النقطة الدقيقة الحاسمة بين الدعاة المقيضين المهيئين للدعوة، المؤيدين من الله، وبين الدعاة المحترفين المصطنعين، المتكلفين المتملقين المجاملين الذين يسمون أنفسهم " واقعيين ".

فقال موسى عليه السلام: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِى إِسْرَائِيلَ﴾.

فإني قد أخفيت من أعينك وطرحت في البحر، هذا كله نتيجة لاستعبادك بني إسرائيل، ليس منة، بل كله نتيجة الظلم والاعتداء.

الفرق بين منصب النبوة والقيادة السياسية:

إن مهمة موسى تختلف باختلاف البيئة وباختلاف الظروف المحيطة به وباختلاف المجتمع والجو الذي ولد فيه وعاش، وكانت غايته تحرير وإنقاذ بني إسرائيل، وكل من وقف هذا الموقف تغلب عليه الحمية السياسية وتثور فيه الحمية القومية، ويخاطب بلسان السياسة أو بلسان الحق أو بلسان الاحتجاج، شعب مستعبد مضطهد

بأسوء معاني الكلمة، ولا قول أبلغ من قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوْءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَلِكُمْ بَلاَءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ (سورة البقرة: ٤٩) وقول الله في سورة القصص: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِى ٱلأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِى نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ (سورة القصص: ٤)، إن كل من كان شأنه هذا ويقف مدافعاً عن قوم ويريد أن يحررهم ويتحدى القوة المتغطرسة الظالمة التي قهرته وداست كرامته وأهانته في أعز الأشياء عنده فإن شأنه أن تتغلب عليه النفسية القومية ويخاطب بلسان السياسة وبلسان المطالبة بالحقوق، والمطالبة بالحقوق لها لغةً خاصةً، ولها تعبيرات خاصة. ([1]) .



[1] - استفدنا في تعريب الدرس من كتابات الشيخ الندوي باللغة العربية : روائع من أدب الدعوة، والنبوة والأنبياء في ضوء القرآن .

دعوة سيدنا موسى عليه السلام ومراوغة فرعون

كان سيدنا موسى عليه السلام نبياً مرسلاً من الله تعالى أمثال الأنبياء الآخرين، أكرمه الله تعالى بكلامه وحواره، وكانت وظيفته الأولى أنه كان داعي الحق ومبلِّغ الإيمان والعقيدة، فاقرؤوا آيات القرآن وتأملوا فيها: كيف أبرز موسى عليه السلام صفته الدعوية بتوفيق من الله تعالى وفضله، ولم يتظاهر بشيئ، ولم يصَب بالحمية القومية والعاطفة البشرية، وكانت المناسبة أن الإنسان ينسى فيها كل شيئ، وتثور فيه العواطف الجاهلية (الحمية القومية والفخر الجائر)، وتشتعل فيه عواطف الوطنية والقومية، ويتكلم كما يتكلم الساسة الوطنيون، لكن انظروا كيف غشيته رحمة الله تعالى، حيث إن الحمية القومية لم تتغلب على قوته الإيمانية، وكانت دعوته التي وجهها إلى فرعون دعوة الإيمان بالله تعالى.

قال الله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ. قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ مُّوقِنِينَ. قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلاَ تَسْتَمِعُونَ. قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَآئِكُمُ ٱلأَوَّلِينَ﴾ (سورة الشعراء:٢٣- ٢٦)

كان هذا مراوغةً فكريةً من فرعون، وشطارة للانتقال من موضوع إلى موضوع آخر، كان يريد أن يصرف الناس من الواقع، ويؤخر الموضوع من قوة عارضته ومعرفته بالنفسيات الإنسانية والقومية (التي تحصل لحاكم محنَّك) وسياسته الماكرة، فيهزم

موسى، لكن كان موسى عليه السلام دائماً في عدم الانتقال من موضوع إلى موضوع آخر.

قال فرعون، وما ر ب العالمين ؟ وكان يريد أن يجيب موسى عنه جواباً ينتقل الكلام من موضوع إلى موضوع آخر، فيجري النقاش، لكن موسى عليه السلام وضع إصبعه على موضع الداء مرة ثانيةً، وقال: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ مُّوقِنِينَ﴾، أنت تظن أنه رب العالمين فقط، لا بل هو رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم مؤقنين. كان جواب موسى يضرب على الوتر الحساس لفرعون، لأنه كان يظن ويعتقد أنه هو الرازق، والقادر، والحاكم، والمالك لهذه الأرض، فكان هذا الإعلان ﴿رَبُّ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ معاكساً لدعواه، وكان معناه أن نظام مملكة فرعون لا يساويه أحد في ذلك الزمان، لكن موسى عليه السلام لم يقل مثل ذلك، واكتفى بقوله: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾، وضم إليه هذه الجملة: إِن كُنتُمْ مُّوقِنِينَ، معناه إن كنت موقناً فلا بأس به فإنها حقائق، وليست المسألة مسألة الحقائق فقط، بل مسألة الإيمان بها والعمل لها، فتحدى موسى عليه السلام فرعون، وأشار إلى أصل مرضه بقوله: إِن كُنتُمْ مُّوقِنِينَ، أنت محروم من الإيمان، لو كان عندك إيمان لرأيت أن رب العالمين هو رب السموات والأرض وما بينهما، وهو مالك كل شيئ وحاكمه. غضب فرعون من هذا الكلام، وأراد أن يغضب ملأه، ويُبدوا حيرتهم وأسفهم، فقال لمن حوله: ألا تستمعون، ماذا يقول هؤلاء؟ ألا تثور حميتكم؟ ولا تشعرون بالغيرة؟ ولا تتجرؤن أن تفحموا موسى وتلجموه بلجام من العيي، ألا تستمعون: ماذا يقول هذا؟ لكن قبل أن يتكلم هؤلاء أو يحركوا ساكنهم أتم سيدنا موسى عليه السلام كلامه، قال:

ربكم ورب آبائكم الأولين .

والأمر اللافت للنظر أن موسى عليه السلام يذكر بعد كل جملة يقولها فرعون، اسم الرب تبارك وتعالى، فلا يحب فرعون أن يسمع هذه الكلمة في بلاطه، وتُذكر أمامه، ومن حكمة النبوة أن موسى عليه السلام قال رداً على كلامه: ألا تستمعون: ربكم ورب آبائكم الأولين، ولا يحب فرعون أن تؤثر هذه الكلمات في ملأ فرعون الذين قد سحرهم فرعون وألقي في قلوبهم الرعب، ولا يحب فرعون أن تسمع آذانهم هذه الكلمات، لكن موسى عليه السلام يقلب أمره ظهراً لبطن.

آخر سهم في كنانة فرعون:

﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ. قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ. قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَـٰهاً غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ. قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ. قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ. فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ. وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ .

حاول فرعون من جديد أن يجعل كلام موسى هباءً منثوراً، فاختار أسلوب الإهانة والسخرية، وقال: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾. كان فرعون يعتقد أن موسى عليه السلام سيدافع عن نفسه رداً على كلامه، ويقول: أنا لست بمجنون، عرف فرعون موضع الداء في النفس الإنسانية أن الإنسان إذ أهين أو انتقد ثارت ثائرته، ولا يتحمل هذه الإهانة، صور القرآن الكريم هذا الجوّ الكلامي وهذه المناظرة تصويراً كأننا نسمع ونرى، كان يظن فرعون أن موسى ينفجر غضباً، ويقول: من يقول: أنا مجنون، اطلبوا طبيباً أو ماهراً بالأمراض يفحص عن مرضي، وحينما سمَّى فرعون

موسى عليه السلام مجنوناً أو طائش العقل فكان يريد ذلك. لكن موسى عليه السلام واصل كلامه متجاهلاً عن كل ما وقع، وقال بكل ثقة واعتماد: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

ثم قال موسى عليه السلام نفس الكلام الذي ما كان يحب فرعون أن يسمعه أو يذكر أمام الآخرين، فهذا الكلام لم يكن كلاماً محضاً، بل إذا رأينا داخل هذا الكلام وخلفيته كان ذلك في البلاط الذي كان يعتبر فيه فرعون حاكماً وإلهاً، وكان يريد أن لا يتطرق كلام إلى آذان ملئه، فضلاً عن عامة سكان بلاده. فيتوجهون إلى المالك الحقيقي والحاكم الحقيقي .

لكن موسى عليه السلام يعمل ما لا يحب فرعون، قال: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾.

لم يقل موسى عن نفسه شيئاً، ولم يدافع عن نفسه، وكان مرسلاً من الله تعالى، وكانت وظيفته أن يدعو الناس إلى دين الله، ومثل هذه الاتهامات لا يمكن أن تُشعل غضب موسى وتسخطه، ولا تحمل أدنى قيمة مقابل دعوته الصادقة، وفي هذه البيئة التي ساد فيها الشرك، وتغلبت فيها الوثنية، والتي تتفشى فيها الجرائم والمعاصي، والتي يتسابق فيها المستهترون في توجيه اللوم إلى الآخرين، والتي يذبح فيها الأطفال البُرءاء والرجال الأبرياء، لم يكن في هذه البيئة تهمة المجنون والطائش العقل أمراً فظيعاً، فلم يبال بها موسى عليه السلام وقال: رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ، وزاد فيها جملة: إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

جرح هذا السهم كبد فرعون، وكان يظن أنه رب المشرق والمغرب في مصر، وكان يعتقد أن العالم كله ينحصر في مصر،

وبما أنه حاكم مصر فالعالم كله تحت قدميه، وحينما ذكر موسى عليه السلام المشرق والمغرب وما بينهما فقد ضرب على الوتر الحساس ووضع الإصبع على مو ضع الداء، وكسر بذلك الأساس الذي بنى عليه فرعون قصر ألوهيته الكاذب وكان يفتخر به.

فكيف يسمع كلاماً ضد ألوهيته؟ وأخيراً ضجر من هذا الأمر، وردَّ على كلام موسى رداً مثلما يفعل ملك كافر عجزاً من كل شيئ، في حالة الغضب: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَـٰهاً غَيْرِى لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ. قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيءٍ مُّبِينٍ. قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ. فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ. وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾.

لما ذهب موسى عليه السلام إلى جبل الطور أكرم بهذه الآية الإلهية، وقد أكرم هنا بمعجزتين: معجزة العصا التي تحولت إلى ثعبان، ومعجزة اليد البيضاء التي إذا أخرجها أمام الناس أشرقت مثل الشمس، ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين .



صراع بين سيدنا موسى وسحرة فرعون وإسلامهم بعد هزيمتهم

﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ. وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُمْ مُّجْتَمِعُونَ. لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَالِبِينَ. فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّ لَنَا لأَجْراً إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَالِبِينَ. قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذاً لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ. قَالَ لَهُمْ مُّوسَىٰ أَلْقُواْ مَآ أَنتُمْ مُّلْقُونَ. فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَونَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَالِبُونَ. فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ. فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَاجِدِينَ. قَالُواْ آمَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَالَمِ. رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ. قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلاَفٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ. قَالُواْ لاَ ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ. إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.
(سورة الشعراء: ٣٨ – ٥١).

فطانة فرعون الحاكمة الملكية:

﴿قَالَ لِلْمَلإِ حَوْلَهُ: إِنَّ هَـٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ. يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ. قَالُواْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَاشِرِينَ. يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾.

نطق فرعون بكلمة حكومية، يتكلم بها أهل الحكومة والسلطة وأهل الأهواء والحكومات الشخصية، لكيلا تثير هذه الكلمات الطويلة العريضة شبهات وتساؤلات واعتراضات، يكون فيها مناص للكلام، فاكتفى فرعون بكلمة لم يكن بعدها مجال

للكلام، هذه فطانة ملكية، وتوجد هناك فراسة عقلانية وفراسة شعبية، وفراسة صوفية، وفراسة علمية، ويحدث بها فهم خاص في شيئ من طول الممارسة وطول الاشتغال به.

على كل، إذا كان فرعون نطق كلمة أخرى تطرق إليها النقد والجرح، كيف تكلمت بهذه الكلمة؟ وما هو دليلها؟ لكن السحر لا يجري فيه الجرح والنقد، إذا قيل لأحد: إنه ساحر، الأمر الذي يجب أن نلاحظه (وقد سلط التاريخ عليه ضوءاً كاشفاً) أن مصر قد عم فيها السحر، وهي أكبر مركز للسحر والشعوذة، فقال فرعون: إِنَّ هَـٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ. ولو قال: إن موسى يفعل هذا لغرض خاص، وينسج مؤامرة، لكان موضوع النقد، لذلك فإنه قال قولاً نفسياً: لا مشاحة في أن يكون الإنسان ساحراً، فلا يحدث في واحد من الناس عاطفة أو رد فعل، بل يمكن أن يقول أي رجل: فلان ساحر، وهو يكسب الشهرة بهذا الطريق، لكن فرعون زاد في ذلك قائلاً: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ، فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾. انظروا: ليس في القرآن شيئ وضع في غير محله، أو كان زائداً، فأضاف فرعون هذه الجملة: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ﴾.

هذه كلمة حكومية، كلمة سياسية، تكلم فرعون بكلمة سياسية لأن الناس إذا لم يشعروا بالخطر، ولم يتوجهوا إلى خطورة هذا الخطر، لا يحدث فيهم الغضب، ولا ينشأ فيهم دوافع المخالفة، ولو قال رجل عن شخص كثيراً: إنه ساحر، يعلم فن السحر، لكن إذا علم وأيقن أنه يسبب لنا الخطر ويلحق بنا الضرر، التفت إليه الإنسان وبدأ يظنه خصماً وفريقاً، فقال: يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ﴾. إنه ليس ساحراً فحسب، بل يريد أن يجليكم

بسحره عن أرضكم وبلادكم، فَمَاذَا تَأْمُرُونَ؟ ثم ظهرت هنا حنكة فرعون، فإنه رغم أن يقدم اقتراحاً لاعتقاله، أو يفند سحره، أحال أمره إلى رؤسائه، لأنهم إذا أبدوا رأيهم فلا يُعتبر انتهازياً كثيراً ومنفذاً لعملية محايدة، بل يقال: هذا ما رآه الناس، وكان الكلام نفسياً أيضاً، ذلك لأن فرعون كان يستطيع أن يقول بكل سهولة: اعتقلوا فلاناً، أو يدعو السحرة ويقول: قاوموا هذا الرجل بسحركم، وتظاهروا بسحركم، لكنه أراد أن يهدد الملأ من موسى، فسألهم: ما تأمرون؟ قالوا: ﴿قَالُواْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَاشِرِينَ﴾. أشار عليه الملأ: سيدي ! كيف نقاوم سحر موسى؟ نرى أن سحرة مملكتنا إذا اجتمعوا أو حشروا كانت مقاومة موسى سهلة، فأرسلوا في كل ناحية من المدينة منادياً ماهراً ينادي بكل ساحر ويلتمسه.

فعُلم بذلك أن فن السحر كان شائعاً في مصر، وكان الساحرون في كل مكان، وكانت لهم طبقات، فلا بد أن يُرسل رجال يبحثون عن السحرة الماهرين. ومعنى حشر لغة: جمع، وحاشرين: هم جماعة من الحواشي في الحكومات، نعبِّر عنهم بتعبير آخر باسم: الحُراس. أي أرسل عُمالاً في حكومتك يقومون بجمع الناس، وهم يطلعون على الأمور ويعرفون أين يوجد هؤلاء الناس؟ إذ لا يستطيع كل إنسان أن يفعل مثل هذا: فهم الذين يأتونك بكل سحار عليم .

إعلان يوم الزينة ومطالبة الساحرين بالأجر:

﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ. وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُمْ مُّجْتَمِعُونَ. لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَالِبِينَ. فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّ لَنَا لأَجْراً إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَالِبِينَ. قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذاً

لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾.

أعلن في مملكة مصر: ألا كل من يعلم السحر يحضر عند الملك، وبما أن الناس مكلَّفون بذلك، فأعلن إعلاناً عاماً، لأن الصحف والجرائد لا تنشر آنذاك، فنُودي كما نقول: ضرب الطبل: ستكون مباراة للساحرين في اليوم الفلاني، ويكون تظاهر بالسحر، فعلى كل من يرغب فيه فليحضر، ويمكن أنه قال كلمة يرغب الناس بها، وكان الأمر على إشارته، فما إن أمر بذلك حتى أعلن في مصر: من كان ماهراً في فن السحر فليأت إلى الملك، وبعد أيام اجتمع من نواحي مصر كبار الساحرين، وتقرر يوم الزينة للمباراة.

قال الله تعالى: ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾. وقيل للناس: هل أنتم مجتمعون أي يكون هناك تظاهر كبير، ودندنة للسحر، فهل أنتم تحضرون، وترون هذه الصورة مجاناً؟ (كأن تذاكر الدخول في القاعة وما والاها من القيود في مصطلحات اليوم لا تُشترط) لا يكون هناك تذكرة لمشاهدة هذا المنظر، لكن يكون منظر فظيع جداً، ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَالِبِينَ﴾. قال فرعون هذه الجملة بغاية من الحيطة والحذر: انظروا، فإن في كل شيئ بلاغةً عجيبةً، لم يقل: إننا نصاحب السحرة، لو قال مثل هذا لكان الأمر انحيازياً، ومحايداً، ولا يريد فرعون أن تجري المباراة في جو من الحرية، لأنه كان يؤيد الساحرين ويشرف على أمورهم مباشرة، وكان يريد أن يضر بموسى عليه السلام، فقال: لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين. تأملوا في هذه الجملة تجدوا وراءها عالماً من البلاغة والتوجيهات. ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّ لَنَا لأَجْراً إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَالِبِينَ﴾.

هذه عقلانية المحترفين، يقدم الله فيها نموذجَ أن هناك رسولاً في جانب لم يشر إلى شيئ، ولم يسمه، ولو ألح عليه فرعون لم يقبل، وفي جانب كان هناك ساحر، لم يصبر على أن الملك طلبهم، وهم جاءوا من مناطق نائية، فيجدون جوائز ثمينة، أو يجدون أجرةً أو منحةً، وهم يجدون كل ما يتمنون. فقالوا قادمين: ﴿أَإِنَّ لَنَا لأَجْراً إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَالِبِينَ﴾؟ ما هي جوائزنا إذا غلبنا؟ قَالَ: ﴿نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذاً لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾. وكان صعباً على فرعون أن يخبر كلاً منهم بجائزته، وصعب عليه أيضاً أن يخبرهم بأنهم يجدون مآت من الجوائز، لم يقل مثل هذا وذاك، بل قال: إنكم تنالون رعايةً خاصةً، وتكسبون مكانةً عاليةً، وتكونون من المقربين . كل ملك إذا سُر بأحد يمنح مثل ذلك من الجزاء، وهذه تحف الملوك ومنحهم، وينخدع منها الشجعان والشبان من الناس الذين يصابون بمثل هذه الأمور، ويباشرون أعمالاً لا تليق وشأنهم، لأن التزلف إلى الملوك يكون أفضل من نيل الجوائز والوسامات، لأنه إذا تقرب رجل من الملك وصار محبوباً لديه، وكان متزلفاً إليه، منحه الملك الحكومة أو الوزارة فضلاً من الجوائز الرخيصة .



صراع بين الحق والباطل
ودخول الساحرين في الإسلام بعد هزيمتهم

﴿قَالَ لَهُمْ مُّوسَىٰ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ. فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَالِبُونَ. فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ. فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَاجِدِينَ. قَالُواْ آمَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ. رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ (سورة الشعراء:٤٣ – ٤٨).

سُر الساحرون بما وعد به فرعون سروراً كثيراً، وتقدموا فرحين مسرورين، وسألوا: من يتظاهر بفنه أولاً؟ قال لهم موسى: ﴿أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ. فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَالِبُونَ﴾.

تأملوا الآن في قوله تعالى: بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ، فقد ترجمه الشيخ عبدالقادر أحسن ترجمة باللغة الأردية، ولا يمكن تعبيره أحسن منها بالأردية، وقد استشكل الماهرون بهذه اللغة أيضاً في ترجمة هذه الكلمة، حتى الزمخشري الذي هو إمام العربية لم يشرح هذه الكلمة حسب روحها وقيمتها العلمية: قسماً بغلبة فرعون، وقسماً بغلبة الملك، نتغلب بغلبة الملك، ليست هذه الكلمات تترجم مدلول الكلمة الأصيل، إنهم تكلموا بهذه المناسبة كلام مدح وثناء، وإشادة وإطراء، وإن كلام المادحين يمثل هذه النفسية: سلم الله شوكة الملك، وإذا مسسنا التراب بأيدينا بغلبة الملك صار ذهباً، وإذا أردنا البلوغ إلى مكان بواسطة غلبة الملك بلغنا –، هذه تعبيرات المتزلفين والمادحين – فترجم الشيخ عبدالقادر: بغلبة فرعون، وكانت

هذه الكلمة تستعمل في المتزلفين، فقالوا: بعزه فرعون إننا غالبون ، وأحسن ترجمة لهذه الجملة: وقسماً بعزة فرعون.

كان سحرة فرعون يريدون غلبته، فلا يكون تعبيراً أحسن من كلمة " إقبال " باللغة الأردية، وما هي إلا دقائق وثوان حتى امتلأ الميدان بالحيات والثعابين، وجرت الحيات من كل جانب، فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ. " فإذا هي" كلمة فجائية، تُستعمل لأمر مفاجئ، ويأتي في معناها: فإذا هي، فإذا هو، فإذا نحن، ما يأفكون أي ما صنعوا من سحر وما مكروا من مكر، لقفته العصا، فلما ثبت الحق وزهق ما صنع الساحرون أيقنوا بأن كل ما كان من موسى هو من اللّه تعالى، ولا شك أن موسى عليه السلام نبي، وأكرمه اللّه تعالى بآياته الإلهية، فألقي السحرة ساجدين، لأنهم كانوا مطلعين على دقائق هذا الفن وحدوده، ويعرفون كل المعرفة إلى أي حد يبلغ السحر، فلا يمكن للسحر أن يلقف ما يضاده، يمكن أن يكون السحر ثعباناً، لكن يلقف الثعابين الأخرى التي نتجت عن السحر، هذا من المستحيل. فلما أصبحت العصا التي لقفت العصي الأخرى خرّ الساحرون ساجدين، قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون، واعتقد الساحرون أن موسى رسول اللّه، وكل ما عنده من آية هو من اللّه، بذلك أمكن إزالة جميع ما عندنا من فن السحر، وما إن دخل الإيمان في قلوبهم حتى قالوا من غير روية: ﴿آمَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ. رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾.

تهديد فرعون للساحرين المؤمنين:

﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

ظهرت من فرعون نخوة ملكية أو شعور بالاستعلاء، وكان يعتبر نفسه أعقل وأذكى، وكان يدعي بأنه ليس مثله حاكم ولا حكومة، وهو يحكم أجسام الناس وقلوبهم وألسنتهم وعقولهم، ليس في وسع أي مواطن من مصر أن يخالف أمره. وحينما أسلم الساحرون انفجر فرعون غضباً، وسألهم: من الذي أمركم بأن تؤمنوا؟ فالأصل عند الملوك أو أرباب الحكومات الشخصية آراؤهم وأنفسهم، فليس هنا شيئ حلال ولا حرام، ولا حسن ولا قبيح، فإذا رضي الملك بشيئ أو أشار إليه أو رغب فيه فهو حسن وحلال ومباح، بل فرض وواجب، وإذا لم يرض به فلا قيمة له، وإن تكدست له آلاف من الدلائل والبراهين.

هنا قال فرعون بكل صراحة: ﴿قَالَ هَلْ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾. كان من الممكن أن آذن لكم فتؤمنوا، فلا ذنب في ذلك، لأن الإيمان ليس بشيئ قبيح، لكن الإيمان بدون إذن مني جريمة عظيمة. إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ. تأملوا في هذه القطعة من الآية: هذه فطانة سلطة فرعون الشخصية ونفسيته، حيث إنه اتهم موسى عليه السلام بهذه التهمة قبل أن يُتهم بتهم أخرى: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ أسفاً﴾، كل الأسف! قد انقلب الأمر، دعوناكم لتقاوموا سحر موسى، لكنكم أنتم تلامذة موسى، فأسرعتم في الإيمان به.

لو قال فرعون خلاف ذلك لكان فيه حاجة إلى دليل، وحاجة إلى نقد، ولم يحمل ذلك تأثيراً، لكنه قال كلمةً بفطانته التي تكون للملوك، وهي فطانة حاكمة، أو فطانة للأمراء والحكام يصعب الرد عليها، ويستشكل إثباتها أيضاً، فعُلم منه أنه مؤامرة، وموسى أستاذكم، وأنتم تلامذته، وقد دعونا التلامذة، فاضطر

التلامذة إلى أن يعترفوا بهزيمتهم، أنتم جئتم هنا للإيمان، وتخادعوننا، فلسوف تعلمون، لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف، في هذا الترتيب يمكن أن تكون مصلحة طبية أو شيئ آخر يتعلق بالأجسام، مثلاً تقطع يد أو رجل من جهة مخالفة فتستعمل رجل واحدة، لكن إذا كان القطع مخالفاً كان معذوراً كل العذر، ولأصلبنكم أجمعين .

جواب إيماني للساحرين:

﴿قَالُواْ لاَ ضَيْرَ إِنَّآ إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ. إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. لم يؤثر تهديد فرعون شيئاً في الساحرين، فقالوا بكل ثقة وحماسة: ﴿قَالُواْ لاَ ضَيْرَ إِنَّآ إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾. انظروا إلى هذا الإيمان الذي هو من ثمار نبوة سيدنا موسى عليه السلام، وقد نشأت في الساحرين قوة إيمانية وشجاعة إسلامية بأقل مدة، فقالوا: ﴿لاَ ضَيْرَ، إِنَّآ إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾. لو وقع هذا الأمر مع ولي أو مرب غير نبي، لما نشأت فيهم عزيمة إيمانية وقوة دينية مثل ما ينشأ بوجود نبي، أو أثر فيه وجود نبي كما كان يُرجى.

هذا من تأثير النبوة وتأثيره وروحانيته إذ قالوا فجاءةً: ﴿لاَ ضَيْرَ إِنَّآ إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾. ونجد في الجنة قصراً أحسن من قصرك، وسلطة أكبر من سلطتك، وجوائز أكثر من جوائزك، ويكون لنا شأن – ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ – أما ما قصرنا في هذا الشأن، بحيث تقدمنا للمباراة وجئنا في مقابل نبي، فإن عاقبتنا هي فوائد هذا العقاب وذلك أن يغفر لنا ربنا خطايانا ببركة هذا الإيمان، ولا يغفر هذا التقصير فقط، بل يغفر جميع التقصيرات التي ارتكبناها من السحر والشعوذة، وإن شئت أن نتنازل عن الإيمان بالله الواحد رب العالمين، بعد ما رأينا آيات بينات،

أو خوفاً من عقابك، فهذا محال وصعب المنال. ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

هذا من ثمرات رسالة موسى عليه السلام، وما أكرمه الله تعالى به من اليد البيضاء والعصا، وما أودع فيه من نور النبوة، إن الساحرين الذين كانوا يتظاهرون بفن السحر منذ سنين، وكان ذلك سبباً لاقتصادهم ومعاشهم، وذريعةً لشهرتهم وشرفهم رضوا بالتنازل عنه، والاستماتة في سبيل الله تعالى، وقالوا: نرضى بأن تصلبنا، لأننا نجد أكثر من ذلك وأحسن عند الله تعالى. هذا التأثير لا يحدث من صحبة عامة الرجال، بل يحدث من نبوة الأنبياء ورسالة الرسل عليهم الصلوات والتسليمات .



خروج بني إسرائيل من مصر ومتابعة فرعون

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ. فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَاشِرِينَ. إِنَّ هَـٰؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ. وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ. وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ. فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ. كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ. فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ. فَلَمَّا تَرَاءَى ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ. قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ. فَأَوْحَيْنَآ إِلَى مُوسَى أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ. وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلآخَرِينَ. وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ. ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلآخَرِينَ. إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ. وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾. (سورة الشعراء: ٥٢ ـ ٦٨).

ضاقت على بني إسرائيل أرض مصر، وكانوا يتعرضون كل يوم لأنواع من العقوبات والإساءات والامتحانات والأذى والمصايب، فأوحى الله إلى موسى عليه السلام أن يخرج ببني إسرائيل من مصر ليلاً، يقول الله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾.

بلاغة أدبية في كلمة "عبادي":

تأملوا في كلمة "عبادي"، فيها إشارة إلى ناحية خاصة، يمكن أن تستعمل هنا كلمات أخرى مثل ذرية بني إسرائيل وغيرها، لكن استعملت كلمة "عبادي"، فهي تشير إلى أن الله تعالى ينصرهم، وإذا استعملت كلمة مضافةً إلى ياء المتكلم مثلاً يقول رجل: احفظْ كتابي، ورُد على رسالتي، انظروا جملاً عديدةً: يأتي

صديقي، يقدم صاحبي، فله معان وأسرار، والقرآن الكريم لا يستعمل كلمةً على سبيل الصدفة. فلما أطلق كلمة "عبادي" فكان معناها أن نصر بني إسرائيل على الله تعالى، وأعلن ذلك بهذه الكلمة، وأشار إلى أنهم سينصرون، مثلاً يقول رجل: أنا أرسل أصدقائي فأكرموهم، أو أرسلوا أصدقائي إلى منزلي، فكان معناه: أني أكرمهم .

وقال أيضاً: إنكم متبعون، امتثل موسى عليه السلام لقول الله تعالى، وخرج في الليل ببني إسرائيل من مصر إلى فلسطين أرض آبائه وأجداده، اطلع فرعون على خروج بني إسرائيل، فأعلن في مصر إعلاناً عاماً أن يجتمع الناس ويطاردوا بني إسرائيل. قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَاشِرِينَ﴾.

معنى حشر لغةً: الجمع، وحشر يحشر: جمع يجمع، فكان معنى حاشرين: جامعين، فكان ملأ فرعون يقولون: امشوا وسيروا واجتمعوا، وأرسل فرعون في المدائن عُمالاً وخُداماً، ينادون بجمع الناس: إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ، ومن المقرر أن يجتمع الناس، فوقاية الناس من نفسية الخوف بحيث لا يعلمون أي نوع من العدو يواجهونه، ومن أغار عليهم؟ هل هناك قوة خارجية؟ فأعلن معهم مباشرة: ﴿إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾. ليحضر الناس بعدد كثير، ويكونوا مفعمين بهمة عالية، فلم يستعمل هذه الكلمة صُدفةً، ولم يُشر إلى عددهم، بل قال فرعون هذه الجملة لحفز هممهم، وتفادياً من أن الناس يفرون، وكان ذلك في الليل، وأين يذهب به فرعون؟ ومن يواجهونه؟ وماذا يعملون؟ يمكن أن يمنع كل ذلك سبيلهم، فقال: ﴿إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ. وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ﴾ أي إنهم يكونون سبب غضبهم أو سبب سخطهم، قال فرعون هذه الجملة لإثارة غيرتهم وتمييز الفرق

بين القبطي والإسرائيلي، ليس الأمر هكذا أن حكومتنا في خطر فحسب، أو أن بني إسرائيل أساءوا إلينا، أو نقصوا من قيمتنا، أو لها معنى آخر، قال هذه الجملة لإحداث نخوتهم القومية، وقال بصيغة الجمع: إِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ، ولم يقل: إنهم لي لغائظون. لأن بينهما فرقاً كبيراً، فلم يجعل القضية شخصيةً، بل جعلها قضية الشعب والبلاد.

أسباب عداوة بني إسرائيل:

ولنتأمل الآن: (وهو موضوع يحتاج أن نبحث فيه، ويمكن أن يسلط عليه الضوء من خلال التاريخ) فيما إذا كان فرعون يعادي بني إسرائيل؟ ولماذا كان يخافهم؟ وهو موضوع ذو أهمية يحتاج إلى دراسة.

كان بنو إسرائيل من شبه جزيرة سيناء (فلسطين)، يسكنها إسحاق ويعقوب عليهما السلام وأولادهما، ثم انتقلت ذرية يعقوب وأولاده إلى مصر، جاء يوسف عليه السلام أولاً، كيف جاء سيدنا يوسف عليه السلام؟ يتضح ذلك من سورة يوسف أن السيارة التي أخرجته من البئر، باعته في مصر، ويثبت تاريخياً أن منطقة فلسطين التي تجاور مصر والتي تقع فيها الضفة الغربية الآن كانت مصر فيها دولة غنية، فلم يتمكن أهل القافلة من أن يبيعوه في كنعان، لأن سكانها يعرفونه، فجاءوا به إلى مصر وباعوه، واشتراه عزيز مصر بثمن بخس دراهم معدودة.

حينما صار يوسف وزير المالية في مصر قال بالنظر إلى خصائصه الخلقية وبركة نبوته ومواساته الفطرية التي أكرمه الله تعالى بها، ومزاياه التي ورثها من آبائه (لأنه من أولاد الأنبياء، بل كان نبياً)، أضف إلى ذلك عاطفته الفطرية الخارقة للعادة: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾. (سورة يوسف: ٥٥).

وكان يتمنى أن ينصر الناس ويواسيهم، فقال هذه الجملة بحرقة قلبية ومواساة نفسه، لأنه جرب عملياً أنه من يكون وزير الما لية يكون خالياً من العواطف، وبما أن سيدنا يوسف عليه السلام كان مسئولاً عن المال إلى زمن، وكان صاحب سلطة، وكانت له صلة مباشرة بقسم المؤن والوجبات الغذائية، فكان طبيعياً أن يأتي إليه أهل أسرته، فتكونت في مصر أمة منتمية إلى ذرية إسرائيلية.

وهناك أمران مهمان: أحدهما أن بني إسرائيل جاؤا إلى مصر، وكثر عددهم، وازدادت نسبة التوالد فيهم، وثانيهما أن بني إسرائيل كانوا ذوي جاه ومنصب مقابل الأقباط (الأقباط قصار القامة، ليس فيهم جاه)، وقد رأينا في مصر متاحف، ودوراً قديمةً أيضاً، ورأينا صوراً غريبةً، هذا في جانب، وفي جانب آخر كان بنو إسرائيل أذكى الناس وأرفعهم شأناً، ولا يزال يزداد عددهم.

والأهم المهم أنهم يؤمنون بعقيدة التوحيد، وفرعون يجبرهم على اعتقاد ألوهيته، فدبر فرعون مكيدة إبادة ذريتهم، كما توصل الناس الآن إلى اتخاذ أسباب لقطع ذريتهم، وإن استغرق ذلك مآت من السنين، وبدؤوا يختارون هذا الأسلوب، وليس عندهم مبعث عجب. ليبلغ عددهم إلى درجة الصفر، أو يتوصلوا إلى حالة يمكن القضاء عليهم.

وقد ثارت قضية الاختلاف في العقيدة والاختلاف في الحضارة، لأن بني إسرائيل جاؤا بحضارة بيوتهم حضارة أسرة النبوة، فكانت هناك أمور لا تلائم حضارة مصر، لأجل ذلك يضمر أقباط مصر في صدورهم حقداً وبغضاً، وكان بين الأقباط والأنباط بون شاسع.

وإذا تلونا القرآن أو فسرنا آياته وترجمنا معانيه فلا نستطيع أن نبين بكل وضوح أسباب ادعاء فرعون بألوهيته، كان بنو

إسرائيل يعتقدون بوحدانية الله تعالى، والتاريخ يشهد بذلك كما يقول الله: ﴿يَا بَنِى إِسْرَائِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ﴾. يقول المفسر الهندي الكبير عبد الماجد الدريابادي (الذي له اطلاع واسع على الديانات الأخرى) في تفسير هذه الآية:

"رغم أن بني إسرائيل كانوا مصابين بأنواع من الأمراض الخلقية كانوا يتمسكون بعقيدة التوحيد على أقل درجة "([1]).

حصلت لهم ميزة خاصة في التوحيد، وهم يتميزون بها حتى الآن أيضاً، أما المسيحية فقد تحولت إلى ديانة مشركة، ولها ضلالات مثل عقيدة التثليث وصلب عيسى عليه السلام، لكن اليهود كانت فيهم عقيدة التوحيد، رغم أن فيهم مواضع ضعف ومفاسد من الكبر واحتقار الناس وازدراء النوع البشري والحضارات والديانات. هذا كله مما أقض مضجع فرعون، فمكر مكراً كباراً لاستئصال بني إسرائيل، خاصةً حينما أبدى الساحرون سحرهم وانهزموا، وظهر أمام الجمع علناً غلبة موسى عليه السلام، وآمن الساحرون به اشتد الأمر تفاقماً، وبدأ هذا الخطر يقلق بال فرعون أن الأقباط كلهم سيؤمنون بموسى عليه السلام، فكان آخر سهم في كيد فرعون (وهو مكيدة لدى الأقوام والأمم) أن يقتلوا، أو ينفوا من البلاد لئلا يبقى هذا الخطر. فأعلن فرعون في الناس أن هؤلاء يبغضوننا كثيراً، ونحن نشعر بهم خطراً، احشروا، نصارعهم ونعتقلهم في السجون أسارى أو نقتلهم: ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ﴾.

بدء الرحلة :

القصة أن سيدنا موسى بدأ رحلته مع قومه في ظلام الليل،

[1] - تفسير آية : يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ .... التفسير الماجدي، المجلد الأول

ولم يكن بين شبه جزيرة العرب وبر إفريقيا إلا طريق بري، يتصل به قارة إفريقيا وقارة آسيا، وكان في شمال شرق مصر شبه جزيرة سيناء.

كان موسى عليه السلام يريد أن يخرج بني إسرائيل من إمبراطورية فرعون، لكن أخطأ طريقه في جنح الليل. ولم يكن هذا الخطأ أمراً مفاجئاً، بل كان قضاء الله وقدره، وقد قرر الله تعالى أن يتوجه إلى طريق البحر بدلاً من أن يتوجه إلى طريق البر. وإن كان طريق البر قريباً، لكن وصل في ظلام الليل إلى جهة أخرى.

فلما أسفر الصبح عرف أنه يتوجه إلى الشرق بدلاً من الشمال، وهو الآن على جانب من البحر الأحمر (القلزم)، والبحر أمامه، ويفيض بأمواجه المتلاطمة، وكان وراءه جيش فرعون، يكاد يهلك وجودهم، وبلغ بنو إسرائيل من الدهشة والحيرة كل مبلغ، لأن البحر تتلاطم أمواجه، ووراءه جيش فرعون، فبدءوا يسيئون الظن بموسى عليه السلام إساءةً لم تسبق من قبل، فصاحوا صيحةً: يا موسى ! ما كان غرضك؟ لماذا جئت بنا إلى هنا؟ ما قصرنا في شأنك؟ بحيث جعلتنا لقمةً سائغةً لهذا الطاغية؟ هل نشك في موتنا؟ ماذا نعمل هنا؟ البحر أمامنا، والجيش وراءنا، وصارحوا صيحةً: نحن الآن بين فكي الرحى، أنت جئت بنا إلى مكان نقع فريسةً لظلم فرعون: إنا لمدركون. إذا تقدمنا إلى الأمام غرقنا في البحر، وإذا رجعنا إلى أعقابنا أخذنا فرعون شر أخذ، فلا مناص لنا من الموت.

كان خوفهم بالنظر إلى الحوادث والتجارب صحيحاً، لأنهم إذا قذفوا بأنفسهم في البحر تخلصاً من فرعون كانت عاقبته معلومةً، فإن البحر بدون السفينة والباخرة لا يكون ممراً آمناً للمسافرين، فإنه لا يميز في الإغراق بين ظالم ومظلوم وحاكم

ومحكوم.

إيمان نبي وعاقبة عدو الله تعالى

هنا يستطيع نبي من أنبياء الله تعالى وهو ذو علم وأمانة أن يقول من دون خوف ولا رعب: ﴿كَلَّآ، إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾.

تصوروا أنه لا يقول قائد كبير ولا مثقف عظيم ولا فطن لبق أيضاً أن هناك بحر القلزم، ووصل إلى شاطئه، وهذا البحر يتلاطم بأمواجه، ويمتد إلى أميال طولاً وعرضاً. ويتصل بشبه جزيرة سيناء، التي أراد بنو إسرائيل أن يذهبوا إليها، وكانت خارج مملكة فرعون.

تصوروا: من هو الرجل الذي لا يتزلزل في هذا الموضع، وما هي القوة التي لا تنهزم أمام هذه القوة الصارخة، لكن إيمان نبي من أنبياء الله تعالى يقهر المرئيات الواضحة والحقائق الناصعة، فتتخدع عنده العيون، وتسمع الآذان كذباً، وتخطئ الحواس الإنسانية، لكن وعد الله تعالى لا يحمل كذباً ولا زوراً.

فيقول آنذاك نبي فقط: كلا، ولا يكون هذا اليقين إلا في نبي مرسل من الله تعالى فإنه حينما وعده أتمه، فلا يحول دون النبي الأوضاع، واستعراض الموقع الجغرافي، ودراسة الواقع، بل كان أمامه قول الله تعالى: أسر بعبادي، واخرج من هنا، فكان أمامه مشيئة الله تعالى.

كان سيدنا موسى عليه السلام مأموراً من الله تعالى، وكان واثقاً كبيراً بوعد الله تعالى، وعرف من نور نبوته أن الغاية العليا

التي بُعث لتحقيقها والرسالة التي أكرم بها هي أعلى وأجل من قضية البحر المتلاطم، فقال بكل ثقة ويقين: ﴿كَلاَّ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾. معنى سيهدين أن ربي سيشق لي طريقاً ويبلغني إلى منزلي.

هذا ما قاله بكل قوة واعتماد وطمأنينة قلب وشرح صدر، كل لفظ من هذه الجملة يدل على كمية الثقة بالله تعالى التي كان يحملها في قلبه، ثقةً بالله تعالى، وكم كان قلبه مفعماً بالإيمان بقدرة الله تعالى، وكان يؤمن بأن هذا السفر تمّ في الليل بأمر من الله تعالى، فلا يؤيس الله تعالى عبده من رحمته، ولا ينقض عهده، فلماذا نخاف من هذا البحر الهائج المائج، ولماذا نرتعد من الجيش العرمرم؟ وإن هذا الخوف من الله تعالى سيجعل الأعداء لقمةً سائغةً لعباده المؤمنين بالنظر إلى رحمته ورأفته.

هذا الوضع كان في الظاهر خطيراً وذا حساسية، وهو أن سيدنا موسى عليه السلام كان يذهب ببني إسرائيل خارج حدود دولة فرعون، ليخرجهم من هذه الأرض التي كانوا يعانون فيها الذلة والهوان، ويسومهم فيها فرعون سوء العذاب نظراً إلى قوميته ودينه، وكان موسى عليه السلام يتمنى أن يخرج ببني إسرائيل من حدود دولة فرعون إلى ملجأ الأمن، وكان بنو إسرائيل قد عقدوا آمالاً، لكن الله تعالى يريد أن يغرق فرعون وقومه، إن الوضع وإن كان خطيراً، وكان الناس يظنون أنفسهم محدقين بالأخطار، ولكن لم يطرأ على موسى شك، لأنه كان نبياً حقاً، وقد سرى ليلاً ببني إسرائيل بأمر من الله تعالى، فإذا كان كل شيئ بيد الله تعالى، وهو يملك كل شيئ، فلا يحدث شيئ يتطرق منه الخوف إلى نفسه، فقال موسى عليه السلام: ﴿كَلاَّ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾. سيشق لي طريقاً، هل ينشأ هذا الاعتماد واليقين في إنسان يؤمن بالطبيعة

والفطرة؟ ويؤمن بأصول الفطرة الصلبة التي لا تفرق بين ظالم ومظلوم؟ هل يمكن مثل هذه الجملة من رجل عادي، الجملة التي يرتج صداها في آذاننا، وتخلد آثارها في التاريخ حتى الآن، اسمعوا ماذا يقول الله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَى مُوسَى أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾. أمر الله موسى عليه السلام بأن يضرب بعصاه البحر، فضرب، فانفلق البحر، وتوقف الماء كل جانب كالطود العظيم. وكان الماء في شقين: بعض الماء في جانب، وبعضه في جانب آخر، فكما يكون تل كبير، وجبل عظيم، فتراكم الماء بعضه على بعض وتحول إلى جبلين: جبل الماء في جانب، وجبل الماء في جانب آخر. وكان بينهما طريق بري.

﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلآخَرِينَ﴾. أي أتينا بقوم آخرين للإغراق في البحر. فلم يرجعوا إلى الوراء، بحيث يفر من هنا جيش فرعون، و ينجو من عذاب الله تعالى. إن بني إسرائيل كانوا في مقدمة الركب، فأنجاهم الله تعالى، يقول القرآن الكريم: ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ، ويقول: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلآخَرِينَ﴾ .

وصل قوم موسى إلى البر عبوراً بالبحر بكل أمن وسلامة، رأى فرعون أن موسى وقومه بني إسرائيل قد عبروا البحر بكل طمأنينة، فتقدم بجيشه ليأخذ بهم، فلما وصل فرعون وقومه إلى وسط البحر الذي كان جافاً، فاستوى عليه الماء، وغرق فرعون في البحر مع جنوده، قال الله تعالى:﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

سر الفتح:

هذه آية من اليقين والإيمان، واليقين أكبر قوة في العالم، وإذا ثبت رجل مؤمن على شيئ كالطود ورفض الخضوع والاستسلام

أمام الأوضاع، وتمسك باليقين والإيمان، غيَّر مجرى التاريخ، وتزيفت مقاييس الناس، وقدمت سير الأنبياء والصحف السماوية كثيراً من عجائب هذا اليقين وغرائبه حتى يكون العقل الإنساني حيراناً بمجرد سماعها.

والجدير بالذكر أن اليقين الذي يكون على أساس النفس الأمارة بالسوء والعناد أو على قوة إنسانية أو مساعدة خارجية، ولم يكن منبعه الإيمان والعمل الصالح والاعتماد على الله تعالى، بل الأسباب المادية والحيلة السياسية والرفض والقبول كانت عاقبته فاسدةً بعض الأحيان. والتاريخ يشهد أن مثل هذا اليقين جرَّ كثيراً من الويلات والاضطرابات، وهلكت الأمم والملل من أجل يقين كاذب وعنجهية رجل وغطرسته.

إن ما ابتُلي العالم الإسلامي به اليوم من مصايب وما حدث زلزال في قصر الدين، وما أصيب المسلمون به من خور واستكانة، وصارت طبائعهم منهارة، كأنهم يئسوا من مستقبل الإسلام، وظهرت كلمات اليأس والقنوط على ألسنة الناس، وصدرت من أقلامهم، ففي مثل هذه الأوضاع يحتاج المسلمون إلى يقين يشحن بطارية القلوب الضعيفة، ويشعل الطبائع الخامدة ويوقظ الهمم الفاترة.

اليقين الذي يحالفه نصر الله تعالى:

١. أن يكون على ثقة خالصة بالله، ولا يمتزج به وعد لمخلوق ورجاء منه.
٢. أن لا ينقص من المشورة والتدبير، بل يؤخذ بكل قوة ما حكمت البصيرة الإيمانية.
٣. أن يفعم قلب صاحب اليقين بالإيمان والإخلاص، ويتصف بالعمل

الصالح، ويتصل بالله على سبيل العبودية.

٤. أن يكون أساسه الحق والصدق، ولا تكون قضيته عند الله تعالى مزورةً أو ضعيفةً.

إذا توافرت هذه الشروط استنزلت نصر الله وتحقق كل ما وعد الله تعالى به.

وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ:

فقد عامل الله تعالى مع جنود فرعون معاملة العزيز، أي شأن ألوهيته وقهره، كما عامل مع بني إسرائيل معاملة الرحمة. فهاتان الصفتان وردتا منفردتين.

وإذا تأملنا فيهما قليلاً بالنسبة إلى بني إسرائيل كان معناهما: العزيز، هذا نوع من الإباء أيضاً أن المؤمنين بالله والمتصلين به كيف يغرقون، فكلمة "العزيز" نوع من المطالبة أيضاً. ومعنى الرحيم أن الله سينقذ بني إسرائيل من الغرق.

ومعنى العزيز بالنسبة إلى فرعون وجنوده أن الله إذا أراد إهلاكهم أهلكهم من قبل، لكن معنى الرحيم أنه أمهلهم برحمته العامة وأخّر عنهم عذاب الله تعالى.

تحدي قصة موسى للعقل المادي الضيق:

"وتأتي قصة موسى في تحديها الصارخ للعقل المادي، الذي ينظر إلى الأسباب والحوادث كقوانين أبدية جامدة طبيعية لا سلطان عليها لأحد، وقوى قاهرة تحكم ولا يحكم عليها، وجاءت محنة وبلاء للذين ضاق تفكيرهم وكلّت أبصارهم عن أن تنظر إلى ما وراء الأسباب وإلى من هو فوق الأسباب، وهنا استعرض قصة موسى في القرآن وما فيها من عبرة وذكرى.

يولد موسى في مصر في بيئة قاتمة وخانقة، وقد انطبقت على

بني إسرائيل كل الانطباق، وسدت في وجوههم المنافذ والأبواب، حاضر شقي ومستقبل مظلم، قلة عدد، وفقر وسائل، وذلة نفوس عدو قاهر، وسخرة ظالمة، لا قوة تدافع ولا دولة تحمي، أمة مصيرها معلوم محتوم قد خلقت للشقاء والفناء.

ويولد موسى، وولادته وحياته كلها تحدٍ لفلسفة الأسباب ومنطق الأشياء، أراد فرعون أن لا يولد، فولد، وأراد أن لا يعيش فعاش، يعيش في صندوق خشبي مسدودٍ وفي ماء النيل الفائض، وينشأ في حضانة العدو ورعاية القاتل، ويجدُّ به الطلب القوي الساهر، فيفلت وينجو ويأوي إلى ظل شجرة كئيباً غريباً، فيجد الضيافة الكريمة، والزواج الحبيب، ويرجع بأهله فيلفه الليل المظلم والطريق الموحش، وتتمخض زوجه، فيطلب لها ناراً تصطلي بها فيجد نوراً يسعد به بنو إسرائيل، ويهتدي به العالم، يطلب النجدة والمدد لامرأة واحدة فيجد النجدة والمدد للإنسانية كلها، ويكرم بالنبوة والرسالة.

ويدخل على فرعون في أبهته وسلطانه وفي ملئه وأعوانه، وهو المطلوب بالأمس، قد تحققت عليه الجناية، وتوجهت إليه الدعوى، وفي لسانه حبسة، وفي موقفه ضعف، فيقهر فرعون وملأه بدعوته وإيمانه، وحجته وبيانه، ويلجأ فرعون إلى سحرة مصر ليقهر بفنهم معجزة موسى التي ظنها فناً وسحراً، فإذا بالسحرة خاضعون خاشعون، يقولون: آمَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ. رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ. ويؤمر بالخروج ببني إسرائيل والإسراء في الليل من أرض الظلم إلى أرض النجاة، ويتبعه فرعون بجنوده ويصبح موسى، والبحر أمامه، والعدو من ورائه، ويخوض البحر فينفلق ويكون كل فرق كالطود العظيم، ويعتبر موسى وقومه ويتبعهم فرعون بجنوده فيلتههم البحر

الهائج .

هكذا يهلك فرعون وقومه الأقوياء الأغنياء، ويملك بنو إسرائيل الضعفاء الفقراء: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا ٱلَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾. (سورة الأعراف: ١٣٧) " (النبوة والأنبياء في ضوء القرآن: ٧٦ – ٧٧، طبع دار القلم، دمشق الطبعة السابعة: ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠ م).

"هذا مثال من أمثلة الدعوات النبوية وحكمتهم، وهذه الصورة الثانية تختلف في الدعوة والداعية والمدعو إليه، الدعوة هي دعوة معقدة دقيقة، الداعية موقفه دقيق وحرج، والمدعو إليه أكبر ملك، لذلك هذه الصورة تستحق الاهتمام منا، وتستحق الدراسة، وتستحق التأمل الدقيق، واستيحاء الحكم والنتائج العميقة والبعيدة المدى، من هذا النموذج الذي عرضه القرآن في حكاية سيدنا موسى عليه السلام وفي حكاية دعوته". (روائع من أدب الدعوة، المحاضرة الرابعة).



دعوة إبراهيم عليه السلام قومه إلى الله تعالى

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ. إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ. قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ. قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ. أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ. قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ آبَآءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾. (سورة الشعراء: ٦٩ – ٧٤).

الاعتماد على الفطرة والواقع في دعوته عليه السلام لقومه:

هذا نموذج من دعوة إبراهيم عليه السلام إلى دين الحق التي خاطب فيها قومه، فإذا تأملتم عرفتم ما ملكت هذه الدعوة من روعة الحكمة وروعة الدعوة النبوية، وعرفتم تنوع الأسلوب، وتنوع فهم النفسية والدخول إلى أغوار النفس الإنسانية.

اقراؤا الآن هذه الآيات التي تحمل حوار سيدنا إبراهيم عليه السلام، وانظروا أسلوبها وطريقة بيانها التي اختارها حينما دعا قومه إلى الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾. إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾. (سورة الشعرا ء: ٦٩ – ٧٠). ذكر سيدنا إبراهيم عليه السلام أولاً كلمة " الأب " (قبل كل شيئ يواجه الإنسان أباه)، وذلك الأب لم يكن من عُبَّاد الأصنام فحسب بل من صُناعها، فكان صناعة الأصنام وبيعها طريقه نحو كسب المعاش أيضاً، وهذه مشكلة عجيبة، ذاك أن العقيدة وطريقة الكسب إذا اتحدتا فيواجه الداعي خطباً كبيراً، لأن الإنسان إذا تنازل عن عقيدته أخذته

فكرة الاقتصاد، وإذا امتنع عن ذلك فمن أين يكسب المال، وكيف يأكل؟

وُلد سيدنا إبراهيم عليه السلام (الذي له مكانة مرموقة بعد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وله فضائل جمة بين الأنبياء الآخرين) في بيئة كان يمارس فيها الناس صناعة الأصنام وعبادتها، فواجه هذه الوثنية (وهل يمكن أن تقدر خطورة هذا الأمر)، لأن الإنسان إذا نشأ في بيت، يكون فيه عمل واحد وهو كسب المعاش فلا يخيل إليه أنه عمل منكر، وإذا خيل إليه فلا يجد في نفسه جرأة على إنكاره، لأنه يعلم أنه يجد منه الطعام وما إليه، ويكسب أبوه فيأكل منه ابنه، ولم يبلغ حتى الآن إبراهيم عليه السلام أيضاً من العمر إلى هذا المدى.

قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ: مَا تَعْبُدُونَ﴾؟ هذا ما ألقاه الله تعالى في قلبه أو أكرمه بالنبوة ومنحه عقيدة التوحيد وهي حقيقة بديهية، (وما هي الحقيقية البديهية، هذا أيضاً نوع من سوء الأدب) وهي حقيقة تختلف عن الأشياء الظاهرة المرئية.

﴿قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ. ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ. أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾:

تأملوا في هذه الآيات وفكروا في حكمة سيدنا إبراهيم عليه السلام في عمل الدعوة، إنه لم يقترح من نفسه أسماءً وصفات لهؤلاء الآلهة، لكي لا يثير هؤلاء، فيردون عليه وينكرونها، بل استنطقهم أولاً فقال: ما تعبدون؟ قالوا: ﴿نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ. قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ. أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾.

وهنالك لم يلجأ إبراهيم عليه السلام إلى الدلائل المنطقية أو الإشارات الفلسفية، بل قال: هل يسمعونكم إذ تدعون، أو

ينفعونكم أو يضرون، فإن الحياة الإنسانية تدور حول هاتين النقطتين، يسمع الإنسان إذا دعي، وينفع ويضر إذا استعين، هذا هو الخيط الذي يربط فرداً بفرد، ووجوداً بوجود، ومؤسسةً بمؤسسة، وهو النفع والضرر، وهما القطبان اللذان تدور حولهما رحى الحياة كلها.

هذه نفسية عُباد الأصنام، فإنهم لا يستطيعون أن يدعموا عقائدهم ومنهج حياتهم بالدلائل لا عقلياً ولا عملياً، ولا يمكنهم أن يثبتوا شيئاً منها في ضوء الحقائق، إن ردّهم الأكبر وجوابهم المشترك، وهو جواب عالمي: ﴿بَلْ وَجَدْنَآ آبَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾. وهذا الجواب لا يمكن فيه الجرح والتعديل والرفض والقبول.

قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ آبَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ:

هذا الذي كان يريد سيدنا إبراهيم عليه السلام منهم أن يقولوه، فهو جواب العاجز، جواب المنقطع عن الإتيان بالدليل على هذه الأسماء؟ هل لها مسميات؟ وهذه الأصنام المنحوتة والأوثان المنصوبة والآلهة الخيالية الأسطورية الأخرى، هل لها أساس وهل لها فائدة في الحياة؟ وقدرة على العمل، ومُكنة من النفع والضرر وسند من العلم.

إنكم تستمرون في دراسة هذه الآيات فتنتقلون من معنى إلى معنى وتفهمون الفرق بين الأسلوبين، وتتعجبون من فهم سيدنا إبراهيم عليه السلام العميق الدقيق، للنفسية الإنسانية، وقدرته وبراعته في الدخول إلى مداخل النفس الدقيقة وإلى أغوارها العميقة! كيف استخرج كل ما عندهم من ثروة ذكاء، وثروة بيان وثروة دفاع عن النفس، وآخر سهم في كنانتهم، كانوا يستطيعون أن يطلقوه [بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون] فسيدنا إبراهيم عليه السلام استنفد

كل ما عندهم من قدرة جواب، فأصبحوا مفلسين، أصبحوا فقراء، أصبحوا لا شيئ عندهم، ثم بدأ ما يوجه إليهم من الدعوة ويدعوهم إلى الله تعالى، وإلى التوحيد، فقال: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَّا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ. أَنتُمْ وَآبَآؤُكُمُ ٱلأَقْدَمُونَ. فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبَّ ٱلْعَالَمِينَ. ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ. وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ. وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ. وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ. وَٱلَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيئَتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾. (سورة الشعراء: ٧٥ – ٨٢).

الانطلاق والتدفق في الحديث عن الله تعالى :

هنا بدأ إبراهيم عليه السلام دعوته، وشرح أمام القوم عقيدة التوحيد فقال: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَّا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ.....﴾ ، هذه جراءة إبراهيم، وهمته حيث إنه استعمل لآباء قومه كلمة العدو، ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبَّ ٱلْعَالَمِينَ﴾.

فسيدنا إبراهيم قال في جواب قولهم: نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين، هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون، فاكتفى بالنفي المجمل، ولكنه لما جاء إلى ذكر الله تعالى والدعوة إليه توسع واستعان بالإثبات المفصل، فقال:

﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبَّ ٱلْعَالَمِينَ. ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ. وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ. وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ. وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ. وَٱلَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيئَتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾. (سورة الشعراء: ٧٧ – ٨٢)، ذكر الله تعالى في هذه الآيات خمس خلال (وهي الخلق، والهداية، والرزق، والموت، والحياة)، أما السؤال الذي وجَّه إلى القوم فقد سأل فيه عن أمرين فقط: هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون. لكنه لما ذكر الله تعالى وتحدث عنه كأنه شعر بطرب وجاشت نفسه، فتوسع في الحديث عنه تعالى، إن

الإنسان إذا ذاق شيئاً لذيذاً فإنه يلوكه ويمضغه ويديره في الفم، أما إذا كان الشيئ مراً – ولا بد منه – فإنه يبتلعه ابتلاعاً ويتخلص منه بسرعة.

فلما ذكر الله تعالى تحركت العاطفة فيه وجاش فيه الإيمان، فقال: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبَّ ٱلْعَالَمِينَ. ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ. وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ. وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ. وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ. وَٱلَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيئَتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾. (سورة الشعراء: ٧٧ – ٨٢).

هذه الصفات كلها ضدكم، ليست سرداً لجميع الصفات، حققوا واحدة منها، بل هذه أمور ينجزها كل من شاء، مثلاً إطعام الطعام، إذا لم يكن عندكم إحياء الموتى، فأطعموا الطعام، ومعالجة المرضى، فعالجوا المرضى، ونحن مرضى فعالجونا، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ. وَٱلَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيئَتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾.

فقد ركز فيها على الدعوة والتبليغ، فليس في هذه الجملة استنكار شديد لعبادة الأصنام، بل فيها نشر دين الحق وتبليغ دعوة الإسلام.

(يَغْفِرَ لِى خَطِيئَتِى) كأنه أبدى فيها بشريته أيضاً، لأنهم كانوا مسرعين في اعتقاد الآخرين آلهة، وأنا بشر، يمكن أن يصدر مني خطأ.

فإن إبراهيم عليه السلام قد اختار الحكمة في إعلان عقيدة التوحيد، لئلا يعبده هؤلاء بدلاً من الله تعالى، لأنهم كانوا مستعدين كل وقت للعبادة، انظروا إلى أنه قد ظهرت شخصية جديدة، فاتخذوها إلهاً، فقال إبراهيم عليه السلام: يمكن أن يصدر مني

خطأ، وكانوا يعتقدون أن آلهتهم لا يخطئون، فأبدى إبراهيم عليه السلام بشريته أيضاً.

نداء القلب لا يبحث عن المناسبة:

﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْماً وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّالِحِينَ. وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلآخِرِينَ. وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ. وَٱغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾.

لم تطمئن نفس إبراهيم بالكلمات السالفة الذكر، فلما جاءت كلمة الله على لسانه جاش قلبه، وجعل يصدر نداء القلب كالدعاء مستغنياً عن المناسبة والمكان: رب هب لي من الصالحين.

المراد من الحكم: الحكمة، وكلمة الحكمة بليغة، وتحمل آفاقاً واسعةً، لا يمكن نقلها إلى لغة أخرى، ومعنى الحكمة: العقل والفطانة، الطريقة، وحسن التدبير، وطريقة أداء الكلام بأسلوب جميل، لئلا تكون هناك شائبة للمداهنة والانتهازية، ولا تتدخل فيها السياسة، لأن السياسة شيئ والحكمة شيئ آخر. فدعا الله تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْماً﴾.

وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلآخِرِينَ:

أي اجعل ذكري بعد حياتي، وهذه مطالبة فطرية للطبيعة الإنسانية أن الأمم التي تأتي بعده يخلد فيها ذكره ومعرفته بطريق حسن وثناء عاطر.

وقال أيضاً: إن رسالته تستمر، وتبقى الرسالة بطهارة صاحب الرسالة وعفته، وعظمته وإخلاصه وذكره الحسن، ولا تكفي الرسالة المحضة، ولا بد له من عصمة صاحب الرسالة، وكذلك لا بد من طهارة الرسالة وصاحب الرسالة وعفتهما وعصمتهما، فقال: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلآخِرِينَ﴾.

ليؤمنوا برسالتي، ولا يكون لهم عائق فيقولوا: إننا سمعنا عن صاحب هذه الرسالة، فإنه يعمل عملاً آخر، لم يفعل ذلك إلا لشهرته، وذيوع صيته، ولم يعمل إلا لترويج بضاعته في السوق.

ففي هذه الآية بلاغة عجيبة، إنه لم يقل هذه الجملة نزولاً عن نفسه (إننا نريد أن يكون لنا ذكر حسن، ويحب الناس أن تكتب لهم تراجم حياتهم، وكثير من الناس يوصون، وكثير من الناس يوفرون لذلك أسباباً. لكن قال ذلك لتأثير رسالته: لسان صدق في الآخرين، ويؤقن الناس أن صاحب هذه الرسالة كان مخلصاً، متورعاً، وعارفاً بالله تعالى.

واجعلني من ورثة جنة النعيم:

وبعد ما قال هذه الكلمات تذكر أباه، لأنه كان إمام عُباد الأصنام، ومن أكبر النساك والكهنة، فقال: واغفر لأبي، إنه كان من الضالين.

هناك خرجت كلمة من فطرته (وهي عاطفة فطرية توجد في كل فرد): واغفر لأبي: إنه كان من الضالين. لأن رحمته وسعت كل شيئ.

أكبر دافع للقول والعمل:

﴿وَلاَ تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ. يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ. إِلاَّ مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.

وليعلم أن أكبر دافع لدعوة نبي وجهده وقوله وعمله هو ابتغاء رضا الله تعالى، ولا يكون نصب عينيه مقابل مادي، سواء وجده أم لم يجد، وهذه العاطفة كالسيف القاطع الذي يقطع كل شيئ إلا رضا الله تعالى، ولا يطلب نبي شيئاً سواه، إلا أن يرضى الله تعالى، فإذا وجده وجد كل شيئ، وإذا علم الأنبياء أنهم بلغوا رسالة الله

ورضي بهم ربهم فلا يعبأون بأي نتيجة تعقب ذلك.

فأول شيئ هو أن يُبتغى رضا اللّه تعالى، فإذا حصلت مع رضا اللّه تعالى المنافع الدنيوية والمصالح المادية كان النجاح حقيقياً، وإذا حصلت الدنيا كلها بدون رضا اللّه تعالى يرادف ذلك الفشل والخيبة عندهم في معنى الكلمة، ولا شك أن السلطة الدنيوية والحكومة من نعم اللّه تعالى التي ينالها الإنسان بشروطها في مناسباتها، لكنها مزدوجة برضا اللّه تعالى، هذه هي طبيعة النبوة.

والشيئ الثاني هو الاهتمام بعقيدة الآخرة واللهج بها والإشادة بذكرها، والتنويه بشأنها تنويهاً يجعلها من النقط الأساسية في دعوتهم، ويشمر لذلك كل من يعيش في أخبارهم وأحاديثهم، ويتذوق كلامهم ويتأكد أن الآخرة تكون دائماً نصب أعينهم، وتكون متمثلةً أمامهم بنعيمها وجحيمها، وسعادتها وشقائها، فهم إلى الجنة في حنين شديد، ومن جهنم في فزع كبير، وهو شيئ طبيعي قد ملك عليهم مشاعرهم، واستولى على فكرهم.

فكان أثرها النفسي أن المؤمن بالآخرة يكون على مستوى الفرد والاجتماع مواظباً على القانون، وأكثر حذراً وحيطةً مما لا يرضاه لأنه يكون عابداً للّه تعالى، وإن لم يكن هناك أحد ينظر إلى عمله أو حركته أو يؤاخذ بفعله، لا يصدر منه عمل يضاد الأخلاق والمروءة، فكان من نتيجته أنه يصبر على خزي وندامة كبيرين في الدنيا بجنب عذاب الآخرة الأبدي وخزي يوم القيامة وذلته، فلا يصبر عليه فحسب، بل يخاطر بنفسه بعض الأحيان بهذه المشكلات، لأنه يخاف كثيراً خزي يوم القيامة وندامة المحشر، وبمجرد تصور هذه الأمور يجزع ويهلع، وحينما ذكر سيدنا إبراهيم عليه السلام الآخرة وتمثل له هولها وفزعها جاشت نفسه وفاضت عاطفته، فواصل دعاءه:

﴿وَلاَ تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ. يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ. إِلاَّ مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾. فجاءت في هذه الكلمة (قلب سليم) وعقيدة التوحيد هي أن القلب يكون بريئاً من كل شرك، ومطهراً من كل نقص، كما يكون خالياً من الأمراض الباطنة من البغض والكبر والحقد والعداوة حتى الازدراء والاحتقار.

وأن يكون حب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم غالباً على كل شيئ، ولا يسري إليه حب المال، ولا يؤثر الأولاد على أحكام الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، لذلك ذكر الله تعالى أولاً المال والأولاد ثم قال: إِلاَّ مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ.

إن كلمة " سليم " التي لا يمكن التعبير عنها بكلمة أخرى، هي تحتوي على كل معنى من معاني السلامة، (بقلب سليم)، بالنظر إلى اللغة العربية نعرف أن لكل كلمة درجةَ حرارة، فلا يمكن استعمال كلمة أخرى بدل "سليم" هنا، لكن الله تعالى استعمل هذه الكلمة في مدح سيدنا إبراهيم عليه السلام: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (سورة الصافات: ٨٤).

لا بد من أن يسعى الإنسان في صياغة القلب قلباً سليماً، وليحذر كل ما يضاد القلب السليم، وليخش أن يكون ذلك صنماً أو إلهاً، وكل ما يكون شريكاً في حب الله تعالى، فليكن بعيداً منه كذلك.

ولا يكن فيه دافع أو قوة متمكنة سوى قوة الله تعالى، وتستمر محاسبة قلبه لكي لا يؤثر فيه غايات سياسية، ومصالح مادية، أو الشعور بالاستعلاء أو العظمة، وقد صدق الدكتور إقبال:

" إن تأثيراً مثل نظرة سيدنا إبراهيم لا ينشأ إلا بصعوبة، وإن الحرص يصنع وينحت في داخل الإنسان صوراً وتماثيل خفيةً ".

ندامة الضالين في جهنم وتمني رجوعهم:

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ. وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ. وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ. مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ. فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُونَ. وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ. قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ. تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ. إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ. وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلاَّ ٱلْمُجْرِمُونَ. فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ. وَلاَ صَدِيقٍ حَمِيمٍ. فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ. إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ. وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

أعظم تحد للمادية المسرفة، وأكبر ثورة على عبادة الأسباب:

"أما قصة إبراهيم المعادة المكررة في القرآن فهي أعظم تحدٍ لتأثير الأسباب واستقلالها، وأعظم شاهد للاستخفاف بقوتها وأصحابها، وأعظم دليل على ضعفها وعدم غنائها عن أربابها، وكأن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان مأمورا بالاستخفاف بهذه الأسباب وأربابها المدلين بها، المقدسين لها، العاكفين على عبادتها والاعتماد عليها، وكأنه وهو رسول التوحيد وإمام الموحدين في عصره، كانت لذته وشفاء نفسه وغذاء روحه وقرة عينه، في الاستهزاء بهذه الأسباب، وعدم الاحتفال بها والتغلب عليها بنصر الله، وإبطال خواصها وطبائعها المودعة فيها، وكأنه كان يلتزم في كل خطوة من خطوات رحلته الإيمانية التوحيدية الطويلة، الموفقة، أن يدوسها بقدميه ويسخر منها بعزمه ويسجل انتصاراً جديداً للإيمان على الشك، والروح على المادة، والتوحيد على نظام الشرك، وقد عاش طول حياته ثائراً على ما حوله من القوة والسلطان وعبادة المادة والمعدة، والآلهة الزائفة والقوى المخيفة .

والسر في ذلك أن العالم في عصر إبراهيم عليه السلام كان

خاضعاً للأسباب خضوعاً شديداً، واعتمد الناس عليها اعتماداً زائداً، حتى أصبحوا يعتقدون أنها مؤثرة مستقلة قائمة بذاتها، وحتى أصبحت أرباباً من دون الله، وأصبح هذا الخضوع للأسباب وتقديسها والاعتماد عليها وثنية أخرى غير الوثنية التي أغرقوا فيها وغَلَوا في عبادة الأصنام والأوثان، وكانت حياة إبراهيم ثورةً على الوثنيين، ودعوة إلى التوحيد النقي الخالص، وتحقيقاً لقدرة الله الواسعة المحيطة بكل شيئ، وأنه يخلق الأشياء من عدم، وأنه يخلق الأسباب ويملكها، ويفصل الأسباب عن المسببات، وينزع عن الأشياء خواصها وطبيعتها، ويستخرج منها أضدادها، ويسخرها لما يشاء ومتى يشاء.

أشعل الناس له النيران، وقالوا: ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾. (سورة الأنبياء: ٦٨)، وكان إبراهيم عليه السلام يؤمن بأن النار خاضعة لإرادة الله تعالى، ليس الإحراق لها طبيعة دائمة لأن تنفك عنها، وإنما هي طبيعة مودعة أمانة فيها، إذا أراد أطلق لها العنان، وإذا أراد أمسك الزمام وحوَّلها إلى برد وسلام، فخاضها مؤمناً مطمئناً واثقاً، وهكذا كان: ﴿قُلْنَا يَنَارُ كُونِى بَرْداً وَسَلاَمَا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾.

واعتقد الناس أنه لا حياة إلا بالخصب والميرة والماء الغزير، فكانوا يرتادون لأسرهم وأبنائهم، ويختارون لسكنهم ووطنهم أراضي مخصبة تكثر فيها المياه، ويتوافر فيها الخصب، وتسهل التجارة والصناعات، وقد ثار إبراهيم عليه السلام على هذه العادة المتبعة، والعرف الشايع والاعتماد على الأسباب، فاختار لأسرته المكونة من أم وابن وادياً غير ذي زرع، لا زراعة فيه ولا تجارة، منقطعاً عن العالم ومراكزه التجارية، ومواضع الرخاء والثراء، دعا الله تعالى أن يوسِّع لهم الرزق ويعطف إليهم القلوب، ويجبي إليهم

الثمرات، من غير سبب وطريق معروفة، فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَاةَ فَٱجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (سورة إبراهيم: ٣٧).

أجاب الله دعاءه فضمن لهم الرزق والأمن، وجعل بلدهم محطاً للخيرات والثمرات، تركهم في أرض لا أثر فيها لما يروي الغلة ويبُلُّ الحلقوم، فإذا بماء يفور من الرمال، ويفيض من غير انقطاع، يشربه الناس في سخاء، ويحملونه إلى بلادهم، ويترك أهله في بلد قفر لا أنيس فيه، فإذا به يصبح مكاناً يؤمه الناس من كل صوب ويأتون إليه من كل فج عميق.

وهكذا كانت حياة إبراهيم تحدياً للمادية المسرفة الشائعة في عصره، وعبادة الأسباب، واتخاذها أرباباً من دون الله، ومثالاً للإيمان بالله وقدرته المطلقة، وأن إرادته فوق كل شيئ، وهكذا كانت سنة الله معه يخضع له الأسباب ويخضع له ما تحار فيه الألباب" ([1]).



[1] - النبوة والأنبياء في ضوء القرآن: ٧٤ ــ ٧٦، دار القلم، دمشق الطبعة السابعة ١٤٢٠هـ المصادف ٢٠٠٠م

دعوة نوح عليه السلام قومه إلى الله تعالى

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ. إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلاَ تَتَّقُونَ. إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ (سورة الشعراء: ١٠٥ – ١٠٨).

يذكر الله تعالى في هذه السورة قصص الأنبياء والرسل، وما عامل أقوامهم معهم، وكيف كان ردُّ الأنبياء عليهم، وما تحمل دعوتهم من خصائص، هذا ما وقع مع كل نبي. وهو نموذج للعلماء الراسخين والمصلحين، لأنهم ناشرو رسالة الله تعالى ومبلغوها، ففيها عبرة ونصيحة لهم.

كذبت قوم نوح المرسلين :

يخبر القرآن الكريم بأن سيدنا نوح عليه السلام بُعث نبياً ورسولاً بعد سيدنا آدم عليه السلام، وقد كذب قوم نوح المرسلين، فكان معنى تكذيب نوح عليه السلام تكذيب جميع الأنبياء والمرسلين، لأن دعوتهم كانت واحدةً.

إذ قال لهم نوح :

استعمل الله تعالى هنا: كلمة أخوهم، ومعلوم أن نوحاً عليه السلام كان من قومه، لكن هذه الكلمة تقتضي أن تستلفت عناية الناس إليه، ويأخذوا بأمره بكل جدية، وقد ولد ونشأ نوح عليه السلام بينهم، وكان الناس يعرفون نسبه وأسرته، ويفهمون لغته.

إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ: أَلاَ تَتَّقُونَ ؛
إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ؛

إن كلمة " رسول " لها مناسبة خاصة مع كلمة "أمين"، لأن أكبر ضرورة للرسالة وأعظمها إنما هي الأمانة، وهي أن يبلِّغ الرسول كل ما تلقى من الله تعالى.

تأملوا في كلمة (الأمانة)، وهي كلمة جامعة تشتمل على تلقي الوحي الإلهي بصدق، وإبلاغه إلى الناس بأمانة، وهي ركن أساسي من أركان نظام الله للرسالة والنبوة، ولا توجد في اللغة العربية كلمة بليغة وجامعة لبيان هذا المعنى الذي يحمل مثل هذا الاتساع (خاصة باللغة العربية)، لأن معناها في اللغة الأردية أن يبلغ الإنسان متاعاً إلى صاحبه كما أخذه منه، لكن معناها في اللغة العربية أن يبلغ الكلام إلى الناس بأمانة كاملة دون خوف ولا طمع.

ونكتة أخرى في كلمة (أمين) أن لا يكون هناك غرض دنيوي، أي كسب مال أو إنجاز مشروع، والأهم من ذلك حب منصب، بحيث تكون لنا مكانة، ونكون مكرمين دائماً، هذا كله يأتي في معنى الأمانة التي تنفي أن يتوافر شيئ منه في الإنسان، لأنه يضاد الأمانة.

فيصعب نقل معنى الأمانة إلى لغة أخرى، وهي تغطي معاني: الشعور بالمسئولية، والتقوى وعدم الحذر وخشية الله تعالى، لكن الكلام الإلهي إذا وضع بجنب سير الأنبياء والرسل اتضح معناه وتجلت حدوده ومعالمه.

فأول ميزة أو صفة للنبي المرسل من الله أمانته، وهي أن يبلِّغ كل ما يسمع من دون نقص، وإن كانت الدنيا كلها تعاديه، أو تعرضت نفسه للخطر، أياً كان أمره، إنه لا يقول إلا ما قال الله له،

أما صلاحه وولايته عند الله تعالى، وشرف نسبه وقدرته على إيصال الكلام إلى الناس، فهذا كله في الدرجة الثانية. فالخصيصة الأولى لكل نبي أن يكون أميناً، وأنتم تقرؤون في سورة الشعراء أن الله تعالى ذكر في قصة كل نبي قوله: ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

إن وحدة الغاية التي وردت في ذكر كل نبي على اختلاف أزمانهم وتعدد أممهم تحمل في طياتها معنى دقيقاً، وكانت حكمة الله تعالى أن يكون نبينا محمد صلى الله عليه وسلم قبل نبوته معروفاً بهذه الصفة، وقد لقبته قريش بالصادق الأمين، فتقرر في قلوب الأميين بمكة أن يلقبوا محمداً صلى الله عليه وسلم بالصادق الأمين، فكانت هاتان الصفتان من صفات البشر العامة ومن سير الأنبياء كذلك .

فاتضح من أن الذين يحملون أمانة الأنبياء وقد وكل الله إليهم خلافة الرسل والأنبياء يجب عليهم أن يتصفوا بصفة الأمانة سواء كانوا من الدعاة أو المصلحين والمربين والعلماء الربانيين، فلا يجوز لهم أن يزيدوا من شيئ وينقصوا شيئاً من عند أنفسهم، أو يبدلوا لمصلحة أو خوف أو ضغط خارجي.

قوة الاستغناء:

﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ. فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

قد وردت هذه الآية في قصة كل نبي، لأن الأنبياء كانوا يعتقدون: إذا كان الله رب العالمين، فكيف لا يربِّينا ولا يقضي حاجتنا، وهناك قول لافت للنظر للعاملين في حقل التعليم والدعوة، وهو شرط أساسي: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾. وقد أودع الله

تعالى في هذه الصفة أكبر قوة فطريةً تجمع بين خصائص كثيرة، لكن إذا أبدى الإنسان حاجته من أي طريق كان، سواء بالإشارة والكناية والبلاغة تضاءل أثره، فلم تتم حاجته المطلوبة، ونقص نصف مكانته، وربع مكانته، والتاريخ الإسلامي زاخر بمآت من القصص والوقائع.

وقد وضع الله فيها تأثيراً، وهو تأثير مباشر، كما يكون في الأدوية تأثير، وفي الأغذية تأثير، وفي الجواهر والفواكه تأثير، كذلك وضع الله في قوة الاستغناء تأثيراً. وأكبر دليل له أن الرسول الذي يكون أكبر شخصية في زمانه، يقول بكل صراحة: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾، كأنه مطلع على الفطرة الإنسانية وهو يُطَمْئِنُ المخاطبين بقوله: انظروا، كيف أسلم كل شيئ، وأخاطبكم بكل أسلوب، وأقول لكم كلمة واحدة، سواء آمنتم به أو لا تؤمنوا، لكن لا أسألكم عليه من أجر، لماذا؟ ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ. فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

مجادلة قوم نوح وسبب عدم إيمانهم:

﴿قَالُواْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلأَرْذَلُونَ. قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ. إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَى رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ. وَمَآ أَنَاْ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ. إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

قال قوم نوح عليه السلام: أنؤمن لك ؟ ونحن الذين يتبعونك وينقادون لأمرك أرذلون، وينتمون إلى وظائف مهينة، فبعض منهم نجّار، وبعضهم بنَّاء، والبعض خياط وبعض منهم كنَّاس .

قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ. ولا شك في ذلك، لأن نوحاً عليه السلام لم ينظر إلى كل رجل ماذا يعمل، لا إلى صناعته أو مهنته فقال من دون خوف: وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ، فعلم منه أن

الكافرين من قوم نوح عليه السلام لعلهم طعنوا في أعراض المؤمنين، ويمكن أنهم طعنوا في نسبهم أن أباه كان يباشر مثل هذه المهن، فأجاب نوح عليه السلام: لسنا مطلعين على أنساب الناس، وليس عندنا تسجيل لأعمالهم ونشاطاتهم، وللمهن التي كان يمارسها آباؤهم .

إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ :

فكيف وماذا كانوا يعملون؟ وكم كانوا فيه أمناء؟ وما هي أعمالهم؟ وأين يعملون؟ كل ذلك في علم الله تعالى، لسنا مسئولين عنه، وإذا آمنوا الآن بدعوتي وبكلامي كان حسابهم عليهم لا علي، ثم ذكر قاعدة ثابتة: وما أنا بطارد المؤمنين .

إلى أي مهنة كانوا ينتمون؟ وأي نسب كانوا ينتسبون إليه أو جماعة يرتبطون به ليس علي مسئولية، إنما أنا أنظر فقط إلى إيمانهم: هل آمنوا بكلامي أم لم يؤمنوا؟ أما أنا فلا أطاردهم نظراً إلى أنسابهم وحرفهم، إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ.

إهلاك العصاة المجرمين وصيانة المؤمنين :

﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾، أي قالوا قلقاً واضطراباً : يا نوح ! (ولا يمكنهم أن يرفضوا دليله ، فلم يستطيعوا أن يجيبوا إجابة مقنعة، ها هو دأب كل معاند، فيبدي الإنسان غضبه ويقول قولاً شديداً) فقالوا: ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾، ومعنى : مرجومين أوسع وأعم، أي نحن نقاطعكم وننفيكم من أوطاننا ، ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ، فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾. (سورة الشعراء: ١١٧ـ ١١٩).

وأنتم تعلمون أن النوع البشري المعاصر من ذرية نوح عيه

السـلام فالـذين ركبـوا السـفينة وأووا إليـه هـم مـن ذريـة نـوح عليـه السـلام، والسـفينة الـتي صـنعها نـوح عليـه السـلام كانـت كـبيرة وخارقة للعادة ([1]) .

وقد اكتشفت بعض ألواحها وأدواتها(كما أفادت الصحف اليومية وكما ورد في التفسير الماجدي وغيره من الكتب) على جبل في تركيا أن نوحاً أعدَّ سفينة وأركب فيها من كل زوجين اثنين، ليستمر هـذا النسـل، وعـدداً كـبيراً مـن المـؤمنين ، قـال الله تعـالى:﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ، ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ﴾ (سورة الشعراء: ١١٩ـ١٢٠) ، فعُلم أن عمران الدنيا آنذاك كان محدوداً ، وكان أكثره في هذا الموضع الذي بعث فيه سيدنا نوح عليه السلام .



[1] - يقدر طول السفينة حسب تصريحات التوراة ٥٣٥ / قدماً وعرضها ٨٧ / قدماً، وارتفاعها ٥٢ / قدماً، وتوجد آثار طوفان عند علماء الطبيعة الآن، وقد جرى هذا الطوفان في العراق ومناطق متوسطة بين نهري دجلة والفرات ، وقد انحصر عمران الدنيا في بداية التاريخ الإنساني على حدود هذه الأرض ، فادعى بعض المفسرين بعموم طوفان نوح عليه السلام (تفسير الماجدي ج٢/٤٨٠ـ٥٢٣).

دعوة هود عليه السلام قومه إلى الله تعالى

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ. إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلاَ تَتَّقُونَ. إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ. وَمَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ (الشعراء: ١٢٣ – ١٢٧).

كان سيدنا هود عليه السلام من الأنبياء الأولين، بُعث إلى عاد، توافرت لهم جميع إمكانيات الحياة، وكانوا أغنى العالم، يعيشون عيشةً رغيدةً، يأتيها رزق الله رغداً من كل مكان.

مسكن عاد :

وقوم عاد من العرب البائدة حسب أقوال المؤرخين، وكان موطنها الأحقاف، والحقف معناه كثيب مرتفع من الرمال، وكانت منازل عاد على المرتفعات المتفرقة في جنوب الجزيرة، وهي الآن تقع في الجنوب الغربي من الربع الخالي قريباً من حضرموت، لا عمران فيها ولا حياة، وكانت جنات ومنتزهات معمورة بأقوام جبابرة يسمون قوم عاد، فأهلكهم الله تعالى بريح صرصر عاتية، جلبت عليهم طوفاناً من الرمال، وقد دلت الآية على أن هوداً عليه السلام لم يكن هو الأول أو الآخر من الأنبياء الذين بعثوا في هذه البلاد، بل سبقه أنبياء ولحقوا به، فقد قال: ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ (سورة الأحقاف: ٢١).

قال الله تعالى: كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ.

تدل هذه الآية على أن عدة رسل بعثوا إلى قوم عاد، أو كان

تكذيب رسول تكذيباً لجميع الرسل .

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلاَ تَتَّقُونَ﴾:

أي أن أعمالكم وتصرفاتكم كالأخلاق الفاسدة والإسراف وطلب الرياء والسمعة الكاذبة كلها مكروهة عند الله، ألا تتقون منها؟

﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾:

فأول وظيفة للرسول هو أن لا يبخس من إبلاغ ما أكرمه الله تعالى به من التعاليم، ولا يختص هذا برسول، بل لا يجوز لنائبيه أيضاً، فلا بد لهم من أن يكونوا أمناء.

﴿فَـاَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ. وَمَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾:

من سنة الله تعالى في العالم البشري أن أحداً إذا سأل الناس شيئاً فزعوا منه، وإذا مدَّ إليهم يد السؤال نجوا منه، ومن استغنى عنهم وتعفف التجأوا إليه وألحوا عليه أن يقبل منهم شيئاً، وقد وُضع القبول في الاستغناء من الأزل، والذلة والمسكنة في الطلب والسؤال، كأن الله قدَّر مع المستغني أمر الرجوع إليه، ومع الطالب أمر الاستغناء عنه، هذه سنة ثابتة من الله تعالى لا تتغير بتغير الزمان. إذا درستم أحوال القرن الرابع الهجري عرفتم أمثال هذه الأمور، كما إذا درستم تاريخ القرن الثامن الهجري وتاريخ القرن الرابع عشر الهجري ظهرت لكم نماذج لها.

﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ. وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ. وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾:

إن جزيرة العرب التي ظلت مهد كثير من الأنبياء ودعواتهم، سكنت فيها عاد منذ العهد القديم، وهي أهم أمة ممثلة للتطورات

المادية والحسية، وكانت مدنيتهم كبرى مدنيات العالم، وتوجد فيها أكثر خصائص المدنيات البارزة، ويعرف من دراسة حياتهم أنها حياة شعب ثائر ضد عقيدة الآخرة، وكافر بالله تعالى، فكانوا يبنون مباني شامخة وآثاراً خالدةً رياءً وسمعةً، يتجلى من النظر إليها أن بُناتها قد نسوا الله عزوجل، ويظنون أنهم يخلدون في هذه الأرض، وهم أقوى الناس، فلا يخافون أحداً، ولا ينهزمون أمام أي قوة قاهرة، ويظهر من سطوتهم وحروبهم أنهم لا يؤمنون بأي قوة مهما كانت كبيرةً، فخاطبهم نبيهم هود عليهم السلام: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ. وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ. وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ .

طبيعة عاد :

إن طبيعة عاد هي شغفهم الزائد ببناء العمارات الطويلة، وتأتي مراحل على شعوب وأمم، فينشأ مرض في أمة، وينشأ آخر في أمة أخرى، ومنها مجاوزة الحد وخرق قانون الله تعالى، إن تشييد المباني وإقامة العمارات ليس قبيحاً عند الله تعالى، هذا من لوازم الحياة، لكن إقامة المباني للرياء والسمعة فقط وهي غير معمورة، ذنب عظيم وخطأ فاحش، وقد اكتشف الآن أن موطن قوم عاد هو الربع الخالي، وهو جزء شرقي من جزيرة العرب، وجزء مهجور حتى الآن، وقد وجد السياحون آثاراً تدل على إسكان قوم عاد هنا .

فقال سيدنا هود عليه السلام من قومه: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾، تبنون للتفاخر والرياء، وقد سرى شبه هذه الفكرة في المدنية الحاضرة في أمريكا وأوربا وبعض البلدان الشرقية.

وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ: ليس المراد من المصانع هنا: الشركات أو ما يشابهها، بل الأمكنة التي يجتمع الناس فيها للمشورة.

وأنتم تبنون مصانع لعلكم تخلدون، وكانت هذه المدنية مزدهرةً ومتطورةً، فاخضرت بها الأرض، وصارت مرتعاً مخصباً، فقد شقت أنهاراً من الجبال، وأزهرت الأحجار، وشيدت المباني، وعمرت المصانع، وقدمت نوادر من الصناعة والفن ما تعجز عنه عقول عامة البشر.

﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ :

كانت في عاد ميزتان بوجه خاص: (١) طلب الرياء وإظهار السمعة (٢) وقوة البطش.

تأملوا أنه لم يأت في القرآن شيئ بدون حكمة، إن الأمم التي أنزل الله تعالى عليهم العذاب، فأهلكوا، قد بعث إليهم أنبياء ورسلاً، فذكروا لهؤلاء الأمم خصائصهم وعاداتهم وحثوهم على تفهّم الحقيقة، وقد سجلها القرآن الكريم، ومثل هذه الصفات لا تزال تظهر في أزمنة شتى إلى يوم القيامة .

ومن هذه الأمراض الشرك والوثنية والظلم وتشييد المباني والتفاخر بها، فليست القضية قضية بناء العمارات، هذا أمر لازم لحياة الإنسان، لكن فيه تلفاً للحقوق، وإضاعةً للمسئوليات، فكم من بيوت كان سكانها جائعين، وكم من بنات لم يتم زواجهن من قلة المال، وهكذا .... لكن البيوت تُبنى وتُرفع القصور وتُشيَّد المستعمرات، ولم يكن الأمر مقتصراً على الإسراف والتبذير، بل كانت له صلة بمخالفة أمر الله تعالى، لذلك قال لهم هود عليه السلام: فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ.

واتقوا الذي أمدَّكم بما تعلمون: ليس معنى أمدَّ: نصر وساعد، بل معناه: الإكثار في النصر والمساعدة، كأن الله يقول: هو أكثر لكم من الأموال والأولاد وإمكانيات الحياة وسخَّر لكم

معادن الأرض. قال تعالى: ﴿أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ. وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾.

وكان قد بارك الله تعالى في قوم عاد في ذرياتهم وإبلهم وأغنامهم وجعل أرضهم خضراء وبساتينهم غنَّاء، لكنهم لم يشكروا الله تعالى على هذه النعم، فقال لهم هود عليه السلام:

﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ. قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِّنَ ٱلْوَاعِظِينَ﴾.

هلاك عاد :

إن هوداً عليه السلام لا يزال ينصحهم، لكنهم لم يقبلوا ذلك، وقد اغتروا بأموالهم وسُحروا بمفاتنهم، فلم يلتفتوا إليه، وقالوا: لا حاجة لنا في موعظتك، نحن دائماً في بناء القصور وعمارة البيوت، أما كلامك فلا يغيِّر شيئاً من سلوكنا، إن هذا إلا خلق الأولين، وما نحن بمعذبين، لأننا قد بنينا القصور، وعمرنا الأراضي المهجورة، فمن يخوِّفنا من سطوته؟ ومن يكون خطراً لنا؟ فكذبوه فأهلكناهم، وجاء عذاب الله تعالى في صورة ريح شديدة قلعت الأشجار وهدمت البيوت وأهلكت الدواب، وارتفعت رمال صحراوية حتى اسودَّ الجو، وأظلم العالم، فدمرهم الله تدميراً، وصاروا صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية.

﴿إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ. وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.



دعوة صالح عليه السلام قومه إلى الله تعالى

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ. إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ. إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. فَاتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ. وَمَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ (الشعراء: ١٤١ – ١٤٥) .

تكذيب رسول تكذيب للجميع :

يحكي الله سبحانه الآن قصة ثمود، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ، فكان تكذيبهم لصالح تكذيب جميع الأنبياء والرسل، تدل الآية على أمرين: أولاً: لم يأت رسول واحد فحسب عبر العصور، بل جاءت رسل كثيرة، ثانياً: إن تكذيب رسول يعني تكذيب رسل آخرين، لأنهم جاءوا برسالة واحدة .

بُعث صالح عليه السلام وهو نبي ثمود في جزيرة العرب، وكان ثمود يسكنون في الحجر، الذي يقع بين تبوك والحجاز.

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ﴾:

أخوهم: كان صالح عليه السلام من قومه، ليس من قوم آخرين، ولد في أسرة كريمة، ونشأ في بيئة صالحة، وكان ذكياً فطناً، له صيت حسن بين أفراد قومه، وهذه سنة الله أنه يبعث الرسول من قومه، لئلا يكون غريباً بين أفراد أسرته، ولا تقع غرابة اللسان والنسب وغرابة الحضارة عائقاً في إبلاغ دعوته، هذه هي المبررات التي يعرضها العامة من الناس، فقد كذبت ثمود صالحاً حينما قال لهم: ﴿أَلا تَتَّقُونَ. إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. فَاتَّقُواْ ٱللَّهَ

وَأَطِيعُونِ. قال صالح عليه السلام بكل صراحة: إني رسول أمين، ناصح لكم، لا أنقص من مالكم، ولا أطالبكم شيئاً، إني أبلغكم رسالة ربي بكل صدق وأمانة.

أكبر وأهم ميزة للرسول أن يكون أميناً، لأنه ينتمي إلى الرسالة، وإبلاغ الرسالة إبلاغ شيئ أغلى وأثمن، فإذا لم يكن الإنسان أميناً يخون في رسالة الله تعالى، ويبخس من حقها، ويبدلها، فقال قبل كل شيئ: ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾. هذا ما يحتاج إليه السامع ويطمئن أن الرسول ما قال شيئاً من عند نفسه، بل نزل عليه الوحي من السماء، فاستعمل الله لذلك كلمة: أمين.

فكل كلمة من هذه الآية معجزة، بل القرآن الكريم كله معجزة، وهو كلام الله تعالى، يمكن أن يؤدى هذا المعنى في عشرات من الجمل: إني لكم رسول ناصح، إني لكم رسول محب الخير، إني لكم رسول، التقى معكم في كذا، لكن استعمل القرآن بدلاً منها: كلمة أمين.

فالأمانة هي الكلمة الجامعة بين معاني الصدق وصحة التلقي من فوق، التلقي من الله العليم الحكيم، وصحة الإلقاء إلى الأسفل، إلى الأمة التي يبعث فيها النبي، وهو الركن الأساسي في مفهوم الرسالة والنبوة، ولا أجمع لهذه المعاني ولا أبلغ من كلمة الأمانة، في لغة العرب، وقد شاءت الحكمة الإلهية أن يوصف بها الرسول العربي قبل النبوة، وألهمت أهل مكة الأميين أن يلقبوه بالصادق الأمين.

فعُلم منه أن المصلحين والدعاة الذين يرثون الرسول مسئولون عن أن يكونوا أمناء في نشاطاتهم.

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾. فمعنى هذه القطعة أن إطاعة الرسول هي إطاعة الله تعالى، لأنه يدعو إلى الله تعالى، وليس معناها أن

يطيع الناس أمر الرسول ويكونوا أتباعاً له شخصياً.

حاجة الدعاة إلى الإخلاص وصدق الأمانة:

﴿وَمَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾.

انظروا كيف صرّح الله تعالى بلسان كل نبي: نوح وصالح وهود ولوط وشعيب: ﴿وَمَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ، هذه وحدة الغاية التي تربط بين هؤلاء الأنبياء المبعوثين في أمم مختلفة وعصور مختلفة ذات معنى عميق، فعلم منه أن الإخلاص والنزاهة والبعد من كل طمع والزهد في كل منفعة شخصية أو منفعة ترجع إلى الأسرة والعشيرة والأولاد شعار الأنبياء والمرسلين، وقد اتفقت الفطر السليمة والعقول المستقيمة على حب هذا الداعية المخلص الناصح الأمين.

وكما ذكرتُ أن التجارب أثبتت هذا الواقع، سواء سافرتَ إلى أمريكا، أو إلى أي مكان آخر وجدتَ شيئاً أكثر تأثيراً، وهو أن الإنسان مخلص، لا يسأل من أجر، ونستطيع أن نقول بكل ثقة: إن الشيئ الذي ينفع إلى يوم القيامة لكل ناصح ومحب ومبلغ ومعلّم هو نزاهته وإخلاصه، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾.

تأملوا أن الله تعالى ذكر هنا رب العالمين، فيه نكتة بليغة أن الله سبحانه وتعالى إذا كان رب العالمين فهو يربِّينا، فلا حاجة إلى أن أسأل أحداً غيره.

نسيان الله في حياة مترفة:

﴿أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَاهُنَآ آمِنِينَ. فِى جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ. وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ﴾.

ورث ثمود عاداً، وهم أولو قوة وأسباب كثيرة، وكانوا مترفين، فكان انشغالهم في الحياة الدنيا ورغدهم، ونسيانهم الآخرة

وضآلة علمهم في هذا الشأن يبين أنهم لا يؤمنون بالأمور التي لا يرونها بأم عيونهم. فخاطبهم رسولهم: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَاهُنَآ آمِنِينَ. فِى جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾.

وكلمة " هضيم " معناها ما يتقطع بأدنى هزَّة، ولا حاجة فيه إلى شدة، وهضيم لطيف لين، ويانع نضيج جيد النضج، مثل الكمثرى والموز، وغيرهما.

يتنعم ثمود بجنات وحدائق مليئة بكثرة الفواكه والثمار، تجري تحتها الأنهار، وكانت لهم زروع خضراء وبساتين غناء، كأن الله تعالى فتح لهم بركات السماء والأرض.

﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ﴾:

وكان يملك هؤلاء مباني شامخةً وقصوراً عاليةً، وهي مظاهر حديثة في البناء والهندسة، نحتوا الجبال فأنشأوا بيوتاً واسعةً، وقد بلغت فطانتهم وصناعتهم فيها إلى أنهم نقشوا في جدرانها أوراداً وأزهاراً يلوح من بعيد أن موسم الربيع أنبت الكلأ والعشب، لكن هذه النعم لم تلفت ثمود إلى الشكر لله وعبادته، بل زادتهم عتواً وتمادياً، واعتقدوا أنهم يخلدون في قصورهم ولا يخرجون منها، وكانوا يعتقدون أن الموت لا يأتي إلى هذه البيوت الشامخة.

نصيحة صالح عليه السلام :

﴿فَاتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ. وَلاَ تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ. ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ. ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ. مَآ أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ﴾.

قال نبي الله صالح عليه السلام لقومه ثمود:

﴿فَاتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ. وَلاَ تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾.

إن كنتم مطيعين لأحد فأطيعوا رجلاً يتميز بالإخلاص

والاعتدال، ولا تطيعوا رجلاً يخلو من الإخلاص والاعتدال، وهو وأمثاله يُعرفون بالمسرفين.

معنى الإسراف باللغة العربية: مجاوزة الحدود، لا البذل الكثير والإنفاق العميم، هذا المعنى باللغة الأردية، فصار مدلوله محدوداً، فمجاوزة الحدود هو معنى صحيح، لأن لكل إنسان حداً، فإذا جاوز هذا الحد كان مسرفاً، وهذا المعنى جامع وشامل، فيأتي في معنى المسرفين الرجال الذين يتمنون إخضاع الناس أمامهم، ويقدسون أنفسهم، وينالون منافع دنيوية، ويريدون الزعامة والسيادة. ولا تطيعوا أمر المسرفين، الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون.

هذا خير تعريف لأولئك الزعماء المزعومين والقادة الماديين وأصحاب المناصب الذين يثبتون زعامتهم. بحيث يفسدون في الأرض ولا يصلحون أي يقول الأنبياء لعامة الناس: لماذا تمشون وراء هؤلاء المفسدين؟ الذين يظلمون وينهبون الأموال ويرتكبون أعمالاً شنيعةً، ويعيثون في الأرض فساداً. ولا يبالون بأمن البلاد.

في كل مجتمع تكون طبقة مريضة ومصابة بالفساد الخلقي، تزهو بقوتها، وتخالف دائماً كل سعي دعوي وإصلاحي، وتحاول محاولةً حثيثةً في الإضرار بالجهود الإصلاحية، فإن ازدهار هذه الطبقة وتصرفاتها الجائرة، وفسادها الخلقي وحياتها المترفة وخرق قوانين الفطرة وتمتعها بزخارف الحياة يكون سبباً في إهلاك الحرث والنسل، فإذا قضي لقرية بالزوال وعيل صبرها أصيبت هذه الطبقة بالفساد فيجلب عذاب الله تعالى بسوء أعمالها فيدمرها تدميراً.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ:

كان هذا أيسر رد على نصيحة صالح، وقد شاع في ذلك

العصر أن هذا الرجل لا يتكلم شيئاً، بل قد سحر وفتن، فهذا كله ظهور سحره وشعوذته.

لا يزال ينصح صالح عليه السلام قومه، ويدعوهم إلى الله تعالى برفق ولين، ويخاطب بقولهم: هل تتفكرون أنكم تعيشون في هذه الدنيا، وتكون قصوركم باقيةً أبد الدهر، وتأكلون من زروعكم؟ وهل تتفكرون أنكم تنحتون من الجبال بيوتاً، كلا، لا يكون ذلك أبداً.

عجز قوم ثمود أمام دعوة صالح عليه السلام، ولم يتمكنوا أن يجيبوا شيئاً، إلا أنهم قالوا: ﴿قَالُواْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ. مَآ أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ﴾.

ناقة الله تعالى وعصيان ثمود:

﴿قَالَ هَـٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ. وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ. فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُواْ نَادِمِينَ. فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ إِنَّ فِى ذٰلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

قال هذه ناقة، قال صالح: هذه ناقة مرسلة من الله تعالى، طالب ثمود من سيدنا صالح عليه السلام أن يخرج لهم ناقةً حاملاً من الجبل، رغم أنهم يعلمون أن الناقة لا تنتج إلا الناقة، فلا تنبت في الغابة، ولا تخرج من الحجارة، فكانوا يعتقدون أن صالحاً يعجز، ونحن نتخلص من مصيبته.

وكان يؤقن صالح عليه السلام بأن الله قادر على كل شيئ، فدعا الله سبحانه فأخرج لهم ناقةً حاملاً من الجبل، قال: ﴿هَـٰذِهِ نَاقَةٌ، لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ، وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ﴾، لأنها ناقة الله، قد أعطيت آية من الله تعالى.

كانت هذه الناقة كبيرةً، وبديعةً في خلقتها، فكانت تفر

منها أنعامهم ومواشيهم، نظراً إلى هذه الحالة قال صالح عليه السلام: لناقة الله يوم، ولمواشيكم يوم، وهذه الناقة آية مرسلة من الله تعالى، اعرفوا حقها ولا تؤذوها، ولا تسيئوا إليها، وإلا يأخذكم عذاب أليم. فيأخذكم عذاب يوم عظيم. فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُواْ نَادِمِينَ، ومعنى عقر: نحر، فُسّر سيد قطب فعقروها أي فنحروها، ﴿فَأَصْبَحُواْ نَادِمِينَ. فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

عُلم منه أن بعض الناس آمنوا، لكن عددهم كان قليلاً، فقد كفر ثمود ربه وعصوا رسوله وأخيراً عقروا الناقة، فأخذهم العذاب في اليوم الثالث، بحيث جاءتهم صيحة شديدة، انخلعت منها القلوب، ثم زلزلت الأرض فهدمت المباني والقصور وصارت مدينة الحجر أثراً بعد عين. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.



دعوة لوط عليه السلام قومه إلى الله تعالى

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ. إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ. إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ. وَمَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ. أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَالَمِينَ. وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾. (الشعراء: ١٦٠ – ١٦٦).

نذكر الآن قصةً تعرف بقصة قوم لوط [1]، ولم يثبت حتى الآن تاريخياً أن هذا المرض كيف نشأ فيهم؟ ومن أين سرى إليهم؟ وما هي آثاره وعوامله الجسمية والنفسية والجوية؟ [2]، على كل، فقد نشأ فيهم مرض، قال الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ. إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ. إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ..... بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾. فكلمة "عَادُونَ" بليغة، وتحمل إعجازاً إلهياً، وتشمل كل شيئ كما تشرح المرض وتشخصه، ونظراً إلى هذه المادية الجارفة والأصول الخلقية يكون الإنسان تابعاً للأهواء والشهوات النفسية، فتكون فطرته الإنسانية مشوَّهةً، والوجدان الإنساني معطلاً، والشعور الخلقي مشلولاً، ويصل الإنسان إلى الدرجة السافلة التي لا يصل إليها

---

[1] كان لوط بن حاران بن تارح (آزر) ابن أخي سيدنا إبراهيم عليه السلام ، قد بعث إلى قوم يسكنون في جنوب الشام في وادي بحر الأردن ، وكانت قريتهم سدوما وعمودة ، وكانت خضراء ، يوجد هنا البحر الميت ، وكان زمن هلاك هذه القرى وفقاً للدراسات الحديثة ٢٠٦١ ق م . (التفسير الماجدي) .

[2] كتب المفسر عبد الماجد الدريا بادي : لم يكن الباعث على هذا الفعل الشنيع الشهوة الجنسية الفطرية ، بل كان مجرد خبث الباطن ونزوع طبيعة شيطانية ذهبت بهم إلى اللواط وإشباع الغرائز من الرجال . (ج ٥/٥٠) .

الحيوان.

بعث سيدنا لوط عليه السلام إلى قوم بلغت في هذا التسفل الخلقي ومسخ الفطرة [1]، فكان يخاطبهم قائلاً: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَالَمِينَ. وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾.

جواب قوم فاسدي الأخلاق وعاقبتهم السيئة:

﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ. قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُمْ مِّنَ ٱلْقَالِينَ. رَبِّ نَّجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ. فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ. إِلاَّ عَجُوزاً فِى ٱلْغَابِرِينَ. ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلآخَرِينَ. وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ. إِنَّ فِى ذٰلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ. وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

لم تؤثر نصيحة سيدنا لوط عليه السلام أيما تأثير في هؤلاء الأشقياء ناقصي الحشمة والحياء، الغارقين في ذنوب الشهوة والشذوذ الجنسي، بل انقلب الأمر عليهم، بحيث هددوا سيدنا لوطاً عليه السلام بإخراجه من قريتهم: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ. قَالَ: إِنِّى لِعَمَلِكُمْ مِّنَ ٱلْقَالِينَ. رَبِّ نَّجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ. فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ. إِلاَّ عَجُوزاً فِى ٱلْغَابِرِينَ﴾ ([2]). كان لهلاكها سبب خاص، وقد أشارت كتب التفسير إلى أن امرأته لا

---

[1] كانوا يخالطون الأماردة بدل النساء ، لقضاء شهوتهم الجنسية ، ولم يكن لهذا المرض شيوع في الأمم الأخرى ، هؤلاء الأشقياء قد اخترعوا هذا المرض ، فيعرف باللواط ، وقد بلغوا من الوقاحة وخبث الباطن أنهم لا يعتبرون هذا الفعل الشنيع عيباً ، بل كانوا يجاهرون به كفن من الفنون . (قصص القرآن : ٢٥٧ ـ ٢٥٨) .

[2] والمراد بالعجوز زوجة سيدنا لوط عليه السلام ، التي كانت راضية بهذا المرض، وهي كافرةً ، فإذا كانت عجوزاً في معنى الكلمة كان استعمال هذه الكلمة جائزةً ، وإذا لم تكن كذلك استعملت هذه الكلمة تجوزاً لأن زوجة النبي تكون بمثابة أم للأمة ، وإن المرأة التي تكون كثير العيال لا يستبعد إطلاق كلمة العجوز عليها . (معارف القرآن : ج ٥٣٠/٦) .

تظن هذا العمل خطأً، بل كانت هي محل وسيط أو وكيل أيضاً، تحث الرجال على ارتكاب هذا الفعل الشنيع. (ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم)

ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْآخَرِينَ. وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ. [1]

كانت هذه الأرض خضراء من قبل، ويوجد الآن هنا بحر لوط أو البحر الميت، حينما جاء العذاب امتلأت بالماء، وانتهى البر، هذا ما عرفناه عن الماء، وقد أثبتت التجارب أن حيواناً لا يحيى فيه، لا السمك ولا أي حيوان آخر، هذا المكان في الواقع البحر الميت، كأن ملاحةً توجد فيه.

هلاك قوم لوط :

هناك مناسبة تامة بين هذا العذاب وعذاب الأمم الهالكة، فلا بد من الخوض في هذا الموضوع، وتوجد فيها حكمة كبيرة، وكما ذكرنا من قبل أن بحراً قد نشأ بهذا العذاب وهو تتلاطم أمواجه، لكن لا توجد فيه حياة [2]، فلا يحيى فيه شيئ [3]، وقد ذكر

[1] هذا المطر البديع من نوعه للنار والحجارة، كما يكون عند انفجار فوهة بركان .(التفسير الماجدي : ج ١٨٧/٢) .

[2] وقد اتفق كثير من الباحثين المعاصرين على أن قوم لوط الذين نزل بقراهم عذاب من الله تعالى سكنوا قريباً من البحر الميت ، وذكرت أسماء هذه القرى في بائيبل والمؤلفات الأخرى سدوم وعمودة ، قال المؤرخ اليهودي جوزيفس (Josephus) الذي عاصر زمن عيسى عليه السلام : كانت قرى لوط قريباً من البحر الميت ، واكتشفت جماعة من المستشرقين قرى لوط ، وقالت : إن سدوم وعمودة وذعر كانت تقع على الجانب الشرقي الجنوبي من البحر الميت ، وبقية القرى خسف بها البحر الميت (Encyclopedia of Britannica) ، وقال مثل ذلك المحقق المصري عبد الوهاب النجار في قصص الأنبياء ص : ١١٣ ، طبع بيروت) ، وذكر القرآن الكريم أن هذه القرى على الطريق الذي يتجه إلى الشام ، قال تعالى : وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ، وقال في موضع آخر وهو يذكر قرى سيدنا شعيب وسيدنا لوط عليهما السلام : وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ .

[3] لم يكن هنا بحر منذ قديم الزمان ، بل عندما نزل العذاب على قوم لوط وقلبت الأرض وزلزلت زلزالها ، انحطت هذه الأرض نحو أربع مأة متر إلى قعرها ، فخرج الماء ، وكثر حتى تحول إلى البحر الميت أو بحر لوط .

السياح عنه انطباعات ومشاهدات كثيرةً وكثيرةً [1]. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ. وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.



[1] يحمل هذا البحر الصغير المعروف بالبحر الميت في الأردن خصائص جغرافيةً وتاريخيةً ، يبلغ طوله خمسين ميلاً وعرضه ١١ ميلاً ، وقد بلغت مساحته ٣٥١ ميلاً مربعاً ، ويقدر عمقه على أكثر تقدير ١٣٠٠/ قدماً ، ومما يتميز هذا البحر عن البحار أنه لا يتصل بأي بحر كبير ، فيناسب أن يسمى بالبركة الكبيرة ، وبما أن ماءه يكون مالحاً وتوجد فيه أجزاء كمياوية كثيرة ، فيعرف بالبحر والبحيرة . ويتميز هذا البحر كذلك بأنه منحط من سطح الأرض إلى ١٣٠٠ قدم ، وهو أخفض بقعة على سطح الأرض ، ينصب فيه بحر الأردن ، والأنهار الجبلية المجاورة أيضاً .

دعوة شعيب عليه السلام قومه إلى الله تعالى

﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ ٱلأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلاَ تَتَّقُونَ. إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ. وَمَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ. أَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَلاَ تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ﴾ (الشعراء: ١٧٦ – ١٨١).

القرآن كتاب يكشف عن أمراض الأمم السابقة:

القرآن كتاب الله الخالد إلى يوم القيامة، وهو آخر كتاب نزل على محمد صلى الله عليه وسلم، وهو كتاب الإنسانية جمعاء، فقد ذكر الله تعالى فيه الأمراض الأساسية التي نشأت في الأمم السابقة، ثم كيف كانت مؤاخذة الله إياهم، وكيف نزل العذاب عليهم، ولم يذكر القرآن الكريم مرضاً لا يوجد نظيره في أمة، أو ليست له علاقة بالنوع البشري وحضارته الإنسانية، انظروا إلى قوم نوح وقوم عاد وثمود وأصحاب الأيكة، ليست أمراضهم خياليةً أو مفترضةً.

ومن هذه الأمراض التطفيف في الكيل والوزن، وللأمراض أسباب ودواع توجد في الفطرة الإنسانية، وهي ليست غير طبيعية، وليس معنى "غير طبيعية" غير خلقية، وبينهما فرق كبير، فإن طبيعة الإنسان إما تنشئها أو تعترف بها، أو تكون لها فيها رغبة ملحة.

التطفيف في الكيل والوزن:

ومن هذه الأمراض الإنسانية: التطفيف في الكيل والوزن، ينشأ هذا المرض بالحرص الزائد للمال، حينما ينشأ فيه حب المال،

ويتمنى الإنسان أن يكون غنياً في أقل مدة، وقال علماء النفس: إن الغني لا يكون أخطر مثلما يكون حريص الغنى والثراء أكثر خطراً، فكل ما يوجد من فساد وعدم اعتدال، يتدخل فيه حرص المال، فكان حرص المال في قوم شعيب عليه السلام كثيراً لم يكن في الأمم الماضية التي كانت من قبل.

ذكر الله تعالى في القرآن الكريم أقواماً توجد فيهم أمراض جديدة من نوعها، وإلا كان الشرك والوثنية والجهالة أمراضاً تشارك فيها جميع الأمم، فإذا توغل قوم في مرض أو معصية تماماً تناول ذكرها بكل تفصيل، على كل، فالحاجة إلى أن تعرف أسبابها، إن أصحاب الأيكة كانوا يسكنون في بيداء، تعرف بخليج العقبة، وهي بين الحجاز وفلسطين، وتقع الآن في الأردن، وإذا أطلقنا على مدين اسم جزيرة العرب كان سيدنا شعيب عليه السلام عرباً، لأن مدين في منطقة الشام على حدود أرض العرب.

وقال أبو الفداء ابن كثير: "كان أهل مدين قوماً عرباً، يسكنون مدينتهم مدين التي هي قرية من أرض معان، من أطراف الشام، مما يلي ناحية الحجاز، قريباً من بحيرة قوم لوط، وكانوا بعدهم بمدة قريبة" ([1]).

نتيجة عدم الخشية من الله تعالى:

إن ما ارتكب قوم شعيب من تطفيف في الكيل والوزن كان نتيجة عدم الخشية من الله تعالى، والحرص الزائد للمال، ويبقى هذا المرض في مختلف أدوار التاريخ الإنساني، ولا ينتهي أبداً، فلم يذكر القرآن مرضاً زال وانتهى عصره، ولا يوجد أثره الآن، فلم يكن هناك مرض من نوح عليه السلام إلى سيدنا إبراهيم عليه السلام،

[1] - البداية والنهاية لابن كثير، الجزء الأول، ذكر أولاد إبراهيم

ومن إبراهيم إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، إلا وقد أشير إليه في القرآن الكريم، ووضعت النقاط على الحروف، ولم يزل موجوداً في الأقوام، وكما يوجد الآن، ويبقى إلى يوم القيامة، ومن هذه الأمراض: التطفيف في الكيل والوزن.

﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ ٱلْأَيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ. إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلاَ تَتَّقُونَ. إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾.

أثبتت التجارب الإنسانية أن مجرد تبليغ رسالة أو نبوة لا يكفي، بل لا بد أن تكون هذه المهمة بدون نقص أو زيادة، فكانت أخلاق الأنبياء عاليةً وسيرهم مطهرةً أو حياتهم غير مشتبهة، لم يسمع منهم كلمة كذب أو فحش في صغار الأمور فضلاً عن كبارها، كما لم يخدعوا أحداً في أمر ما، فقال شعيب عليه السلام: ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

الحاجة إلى الاستغناء وفائدته:

﴿وَمَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾.

كما ذكرنا من قبل أن كل نبي نادى بهذا النداء، فلم يذكر القرآن الكريم هذه الجملة في موضع أو موضعين كقاعدة كلية، بل أعاد ذكرها في قصة كل نبي بهذه الكلمات: ﴿وَمَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾.

لأن هذا المرض ينشأ دائماً، وبسرعة مدهشة، ويكون أكثر ضرراً، والشيئ الذي يضر بالدعوة الدينية والأهداف النبيلة هو أن يكون الإنسان طالب أجر، وكلما اطلع الناس على فكرة نيل الأجرة ابتعدوا عنه وقلَّ أثر الدعوة فيهم، فمن أراد فليجرِّب ذلك في حياته، ير أثره، وهذه فطرة إنسانية.

الاستغناء حاجة أكيدة للدعوة إلى الله، فلا يتم هذا العمل إلا

به، وهو سلاح الدعاة الذي ينجزون به أعمالهم، في الاستغناء تأثير مثل ذكر الله تعالى، فقد أودع الله تعالى في الاستغناء تأثيراً منذ الأبد. فقال سيدنا شعيب عليه السلام: ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾. أي لا تظنوا أن شعيباً ينهاكم عن التطفيف في الكيل والوزن، وينتفع نفسه بتبليغ الرسالة مادياً، فقد تغير شكله وصورته، فلم يستفد مباشرةً، فاختار له طريقاً، فقال شعيب عليه السلام: لا أريد أن أستفيد منكم شيئاً، كما أنهاكم عن استغلال الأموال بطريق غير شرعي. لأن هذا الانتماء تارةً يكون سبباً لغرض مادي، أو منصب عال، فقال: إن أجري إلا على الله.

تأثير النفسية الاستغلالية:

﴿أَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَلاَ تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ﴾. إن النفسية الاستغلالية ونيل المصلحة الشخصية التي هي ميزة هذه الطبيعة لا تفرِّق بين مباح وغير مباح، وقانوني وغير قانوني، وتؤثر المصلحة الشخصية على المصالح الاجتماعية، وإن جرَّ ذلك إلى مفاسد مدنية وأمراض اجتماعية، فالخيانة في التجارة وسوء التعامل والتطفيف في الكيل والوزن أقل درجةً من هذه النفسية والفطرة، وكانت مصر والشام والعراق وإيران واليونان مراكز كبيرة في عصورها، وكانت هذه المدنية توجد هناك بخصائصها، وفشا هذا المرض في تجار مدين كثيراً، فقد لفت سيدنا شعيب عليه السلام عنايتهم إلى هذا الجانب بوجه خاص قائلاً: ﴿أَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَلاَ تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ﴾. أي فإنهم نقصوا في المتاع وأسرفوا في الثمن، أو خلطوا فيه شيئاً، أو اختاروا طرقاً أخرى.

﴿وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ. وَلاَ تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِى ٱلأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾. لكي تكون نصيحةً للآخرين، وهذه

قاعدة ثابتة أن الإنسان إذا كان فيه مرض أو اعتبر الشيئ حسناً نصح به قصداً أو سهواً، تارةً بلسان القال، وذلك حينما ذهب إلى مكان، واطلع على أن هناك رجلاً يعمل هذا العمل، فلا يسأل عنه الناس، وأخرى بلسان الحال، هذه فطرة إنسانية.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلأَوَّلِينَ﴾. فالتقوى هنا ليست عبارةً عن ذكر الله في غار فقط، أو الاكتفاء بعبادته، بل هي تلقين وتشويق لعدم النسيان لأحكام الله تعالى في علائق الدنيا وضوضاء الأسواق.

رد الحادي لقوم شعيب عليه السلام وعاقبتهم:

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾.

أي قالوا: إن الكلام في التطفيف في الكيل والوزن لا يوافق العقل والمنطق، فيه خسارة شخصية، ولا يعتبره أحد ذنباً، ويقول الناس: هذا ما لا مفر عنه في نشاطاتنا، فإن منع شعيب عن هذا العمل أمر غير فطري، لعل أحداً سحره، فأصيب بسحره وشعوذته، ولا شك في أن السحر أثر فيه تأثيراً كبيراً. ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾.

ميزة الصلاة وأثرها:

ثم قارَنوا الآن بين حياتهم وحياة شعيب عليه السلام، فرأوا أنه يأكل كما يأكلون، ويلبس كما يلبسون، ورُزق أولاداً كما رُزقوا، تأملوا وتدبروا كثيراً حتى توصلوا إلى أن شعيباً يصلي، وهم لا يصلون، وأن علاقته بالله تعالى قوية، وأن تقواه بحيث إن صلاته تنهاه عن الفحشاء والمنكر، فشخصوا هذا المرض، وقالوا: يا شعيب! أصلاتك تأمرك، أي كأنهم أصابوا في إدراك هذا السر، فإن صلاته كانت نتيجة خشيته لله تعالى ورسالته السماوية، وكانت

صلاته مظهراً من مظاهر النبوة، فلم يكن يمنع الناس عن الشرك ومساويه بكونه مصلياً، بل بكونه نبياً ورسولاً من الله تعالى، يخشى الله تعالى ويصلي وينهى عن الفحشاء والمنكر.

فقولهم: أصلاتك تأمرك... مدح وثناء للصلاة، وشهادة منهم، ولا بد أن تكون في الصلاة هذه الميزة، بحيث تنهى الناس عن المنكر، ويكون المصلي بعيداً عن كل سوء، فقد أنطقه الله تعالى بلسانهم وذكره في القرآن الكريم، ولم يرد عليه القرآن الكريم، ليأخذ منه دارسو القرآن الكريم عبرةً وموعظةً.

فإذا كانت الصلاة تجتمع مع الفحشاء والمنكر فلا تعتبر صلاة حقيقية، وليكن تأثير الصلاة في حياة الإنسان بحيث يقع تناقض بين صلاته وبين أخلاقه وأفعاله، فقالوا:

﴿وَمَآ أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَاذِبِينَ﴾. أي ليس بيننا وبينك فرق بدني وفرق ذهني. فمن أين هذا الكلام؟ ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ﴾. قالوا هذه الجملة وهم يظنون أن شعيباً لا يستطيع أن يفعل شيئاً، ولم يكونوا مطلعين على الآيات الإلهية، ولا على تاريخ الأنبياء وأممهم، وإلا لم يتكلموا بمثل هذا الكلام. إذ لا يمكن أن يقول هذه الجملة مسلم ولو كان بالاسم فقط، فضلاً عن ولي من أولياء الله تعالى، مستجاب الدعوات، لا يقول أبداً: ادع علي، والعن، لكن قوم شعيب قالوا وهم لا يعتقدون أن فوقهم قوة إلهية، تملك كل شيئ وتدبر الكون، فقال شعيب عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، رد عليهم سيدنا شعيب عليه السلام رداً إيمانياً ورداً نبوياً، ولو كان مكان نبي أحد لقال: نريكم الآن عاقبتكم الوخيمة ونشكوكم إلى الله تعالى، لكن شعيباً قال: ﴿رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، فلم يعجّل لهم العذاب،

لأنه لو عجّل لهم العذاب لكان معناه أنه يملك شيئاً، وأن له تصرفاً في الكون. قال: ﴿رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾. أي صار أولاً الطقس شديداً، فجعلت أنفاسهم تختنق وتصببوا عرقاً، (ولم تكن هذه المنطقة حارةً)، ثم لما عيل صبرهم واشتدت الحرارة ظهرت قطعة من سحاب، ففرحوا أنها رحمة لهم، وقالوا: هذا عارض ممطرنا، لكن بدأت تتقاطر منه الشرارة ثم الأحجار. كذلك كانت عاقبة المكذبين.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾. يتجلى لنا بعد دراسة فاحصة في اللغة العربية أن كلمة "أكثر" تطلق على الكل أو ما يقاربه، لكننا حينما نتكلم في اللغة الأردية فنتكلم للنصف أو ما يقاربه، فتختلف هذه الكلمة بالنظر إلى موضع استعمالها، فمعنى الآية المذكورة أن أكثر الناس في قوم شعيب لم يكونوا مؤمنين. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.



كلام الله تعالى
وسيرة خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم

﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ. نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلأَمِينُ. عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنْذِرِينَ. بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ. وَإِنَّهُ لَفِى زُبُرِ ٱلأَوَّلِينَ. أَوَ لَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ. وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ ٱلأَعْجَمِينَ. فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾. (سورة الشعراء: ١٩٢ – ١٩٩).

كلام الله قطعي ويقيني :

إن أكبر خصائص القرآن الكريم ومزاياه التي هي من دون معجزاته وآياته التي تفوق طوق البشر هو أنه علم قطعي يقيني جازم. ذَٰلِكَ ٱلْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ.

إن هذه الخصيصة التي يتفرد بها القرآن لا يشاركه فيها بطبيعة الحال أي كلام بشري، ولا يساميه أبداً أيُّ كتاب صادر من إنسان، إنه لم يكن ولن يكون، ذلك لأن مصدر هذا القرآن هو علم الله الذي يعلم الغيب والشهود، ووسيلة صدوره ونزوله، وهو الوحي الإلهي الذي لا يعترضه شيئ من عوارض البشر. إن هذا المصدر بريئ من كل نقص واختلال أو شك أو التباس أو ظن وتخمين أو تدرُّج وتطور أو تعارض واختلاف، وكل ما فيه قطعي يقيني، مريئ منظور، ملتئم جازم حاسم، فليس في علم الله تدريج ولا تطور، وإن صفة علمه كصفاته الأخرى كلها أزلية أبدية. قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾.

يمكن أن يذكر هنا الله سبحانه وتعالى صفةً أخرى من

صفاته، مثل: لتنزيل العزيز الرحيم، أو لتنزيل العزيز الحكيم، لكنه قال: لتنزيل رب العالمين، فعُلم منه أن هذا التنزيل مظهر لربوبية الله تعالى، ففيه منافع بشرية ومصالح إنسانية، ومنهج لقضاء حياة الإنسان بكل سكينة وطمأنينة، وليُعلم أن بين القرآن الكريم وبين صفة ربوبيته علاقةً خاصةً، فقد ذُكرت فيه أمور لا يستغني عنها الجيل الإنساني، وإلا تختل علاقاته ويقتل بعضه بعضاً، أو تكون حاجياته البشرية موقوفة.

﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلأَمِينُ﴾: انظروا: هناك أمران: أحدهما: المبدأ الذي يبتدئ منه شيئ، وثانيهما ارتفاع المبدء والشيئ وعلو مكانتهما وأمانتهما، ومثال ذلك أنك كتبتَ رسالةً حسنةً، لكنك أسندت إلى رجل كان خائناً، وكانت له مصالح أخرى، فيمكن أن لا يبلغ هذه الرسالة بأمانة، فأخبر القرآن الكريم أيضاً بأن الوحي الذي جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مصون من كل شائبة، ولا تتطرق إليه شبهة. فلما ذكر: وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ، قرن معه ذكر: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلأَمِينُ، عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنْذِرِينَ﴾، فهناك ثلاثة أشياء: أولاً: المبدأ الذي صدر منه الأمر الإلهي، ثانياً: الرسول الذي أتى بذلك الأمر، ثالثاً: الموضع الذي جاء إليه، فالأول: رب العالمين، والثاني: روح الأمين، والثالث: قلب النبي صلى الله عليه وسلم الذي لا يساويه شيئ في الطهارة والأمانة والنصح والصيانة، فلما نزل عليه الكلام الإلهي صار محفوظاً.

﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ: تنص هذه الألفاظ ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ على أن هذا الوحي نازل بألفاظه وعباراته، إذ أنه لا يتصور اللسان بدون مفردات ومركبات، فهو نازل بكلمات الله تعالى وعباراته.

﴿وَإِنَّهُ لَفِى زُبُرِ ٱلأَوَّلِينَ﴾: لو سأل سائل: نزل القرآن بلسان

عربي أول مرة، لأنه لم يُبعث نبي في العرب بعد إبراهيم وإسماعيل عليه السلام، لكان الجواب: ﴿إِنَّهُ لَفِى زُبُرِ ٱلأَوَّلِينَ﴾، أولم يكن له آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل. إن الأمور الأساسية قد اعترف بها علماء بني إسرائيل، فقد كانت فيهم عقيدة التوحيد، وبنو إسرائيل هم الشعب الوحيد الذي ظلت فيهم عقيدة التوحيد(رغم شوائب قليلة من الشرك) على مر العصور. فجاء في القرآن الكريم: ﴿يَا بَنِى إِسْرَائِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ﴾ (سورة البقرة: ٤٧).

لماذا انتُخب العرب للرسالة الإلهية؟

وهناك نكتة لا بد أن ندركها: لماذا انتُخب العرب في جزيرة العرب للرسالة الإلهية؟ ولماذا انتُخبوا لهذه الرسالة الأخيرة إتماماً للحجة، وتحقيقاً للعبودية الخالصة والعلاقة الربانية؟ فأحد الأسباب التي قلما اعتنى به الناس هو أنهم كانوا عرباً، وكانت عندهم قوة العمل، كما أنهم لم يكونوا مصابين بالجهل المركب، هناك نوعان من الجهالة في مصطلح المنطقيين: الجهل المركب والجهل البسيط، فالجهل المركب هو أن الإنسان لا يعلم شيئاً، وكان جاهلاً بحتاً، ويعتبر نفسه عالماً أكبر، والجهل البسيط هو أن رجلاً لا يعلم شيئاً، ترف بأنه لا يعلم شيئاً، فالعرب هم الذين كانت ألواح قلوبهم صافيةً، ولم تنقش فيها كتابات ورسوم خاطئة، فإذا كانت رسوم خاطئة افتخر بها الإنسان، ولا يمحوها ولا يأذن لمحوها، بل يظن نفسه عالماً.

فالأمم التي توجد في العالم في ذلك الزمان كانت مصابةً بالجهل المركب بالنظر إلى العرب، كان أهل إيران يعتبرون أنه ليس هناك شاعر أو عالم أو أديب أكبر منه، وكان الرومان يقولون: نحن

أهل القانون، وحضارتنا أرفع من حضارتهم، وكان الهنود مصابين بالغرور والخيلاء، لأن البراهمة يحكمونها، وجاء في تاريخ الهندوس: إن ما وصل إلينا في اليونان من علم الحساب والمنطق هو من الهند، فاليونان تلميذنا، ونحن أساتذة لهم.

فجميع الأمم كانت مصابةً بالجهل المركب، لكن العرب كانوا فريسةً للجهل البسيط. فكانت قلوبهم صافيةً، إذا نُقشت فيها رسوم رسخت وثبتت، وكانوا على فطرتهم، وأصحاب إرادة قوية، وإذا التوى عليهم فهمُ الحق حاربوه، وإذا انكشف الغطاء عن عيونهم أحبوه واحتضنوه، واستماتوا في سبيله. وقد تزايدت في العرب قوة العمل، ولم يكونوا مصابين بالجهل المركب، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ ٱلأَعْجَمِينَ. فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾، لأن العرب لا ينطقون بلغة أو لم يكونوا متأثرين بها ومسحورين منها، ويعتبرون لغتهم أفصحَ اللغات، وكانت لها شهادة ووزن، وكانوا يعتمدون عليها في جزيرة العرب وضواحيها، وكان من بينهم سكان جزيرة العرب أفصحهم وأبلغهم وأقدرهم على إبداء الكلام.

أحوال تعسة للمجرمين:

﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ. لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلأَلِيمَ. فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ. فَيَقُولُواْ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ. أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾، وقد سأل هؤلاء عذاباً من السماء كما سأله كفار مكة فنزلت عليهم الآية: وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

﴿أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ. ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ. مَآ أَغْنَى عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ. وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ لَهَا مُنذِرُونَ. ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ. وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَاطِينُ. وَمَا يَنبَغِى لَهُمْ وَمَا

يَسْتَطِيعُونَ. إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾، ومعلوم أن كلام الله تعالى إذا أسند إلى الملائكة ما تمكَّن الشيطان من سمعه، ولو طار في الفضاء أو وصل قريباً من السماء، ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾ .

أول إعلان على جبل الصفا:

﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلأَقْرَبِينَ﴾: وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخفي أمره في بداية نبوته، ومضى على ذلك ثلاث سنوات، ثم أمره الله تعالى بإظهار دينه، وقال: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ (الحجر: ٩٤)، وقال: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلأَقْرَبِينَ. وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، فالموقف الذي اختاره رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذه المناسبة، وما أبدى فيه من حكمة بليغة، كان دليلاً على نبوته، وآية من آيات الله الكبرى. وكان العرب وخاصةً سكان مكة يعيشون بعيدين عن حياة منعزلة عن المباحث الفلسفية والمصطلحات العلمية والقضايا الدقيقة، لكنهم يمتازون بحصافة رأيهم وسلامة فهمهم والاعتراف بالصدق والأمانة. ولم تكن في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم صحافة ولا قوة لاسلكية، ولا آلات مكبرة الأصوات، فأي وسيلة كانت نافعةً لجمع سكان مكة في وقت مناسب وفي موضع واحد، وكيف يتأثرون بالدعوة؟

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم من العرب، فكان يعرف معرفةً جيدةً مدى تأثير العادات والرسوم المنتشرة في القبايل، فساعد ذلك في مهمته الدعوية الحرجة، ومن عادة العرب أن واحداً منهم إذا شعر بخطر وبحادث أو تربص به الأعداء، وكان سكان تلك المنطقة على غفلة منها، صعد سفح جبل، أو تل مرتفع، ونادى بأعلى صوته: يا صباحاه، يا صباحاه، وبمجرد سماع هذا النداء

يندهش الناس، ويأخذون أسلحتهم ويسعون وراءه لمقاومة الأعداء.

الحكمة البليغة في الدعوة والتعليم:

صعد رسول الله صلى الله عليه وسلم سفح جبل الصفا، ونادى بأعلى صوته: وا صباحاه، وقد رسخ في أذهانهم أن هذا الصوت لا يُرفع إلا لحادث عظيم، ويكون برئياً من كل خدعة أو مكر، وسخرية واستهزاء، ولم يسمع أهل مكة هذا الصوت إلا من رجل قد عرفوا صدقه وأمانته، وكانوا يدركون مدى خطورة هذا الصوت، كما كانت لهم تجارب سابقة في هذا الشأن، فلم يتأخروا في استجابة هذا النداء، واجتمعوا، ومن لم يحضر بعث مندوبه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا بني عبد المطلب ! يا بني فهر ! يا بني كعب ! أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تُغير عليكم صدَّقتموني؟ كان العرب واقعيين عمليين، إنهم رأوا رجلاً جربوا عليه الصدق والأمانة والنصيحة، قد وقف على جبل يرى ما أمامه، وينظر إلى ما وراءه، وهم لا يرون إلا هو أمامهم، فهداهم ذكاؤهم وإنصافهم إلى تصديق هذا المخبر الأمين الصادق، فقالوا: نعم، ولما تمت هذه المرحلة الطبيعية البدائية، وتحققت شهادة المستمعين، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فإني لكم نذير لكم بين يدي عذاب شديد، وكان ذلك تعريفاً بمقام النبوة وما ينفرد به من علم بالحقائق الغيبية والعلوم الوهبية، وموعظةً وإنذاراً في حكمة وبلاغة، لا نظير لهما في تاريخ الديانات والنبوات، فلم يكن طريق أقصر من هذا الطريق ولا أسلوب أوضح من هذا الأسلوب.

أمر بانذار المؤمنين بكل رفق:

قال الله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ،

هذا هو معنى قوله تعالى: وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ، وقال: وبِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ. فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ. وَتَوكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ. ٱلَّذِى يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ. وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّاجِدِينَ. كأن هذا المنظر أحبَّه اللّه تعالى، إنه هو السميع العليم﴾.

اللوم على اتباع الشعراء الغاوين، ونزول الشياطين عليهم:

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَاطِينُ. تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ. يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ. وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُونَ. أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ. وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ. إلاَّ ٱلَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّالِحَاتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيراً وَٱنتَصَرُواْ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ .

منارة نور للأمة الإسلامية

مصدر القوة والثقة والأمل للدعاة والعاملين والمؤمنين الصالحين :

ولم تكن هذه القصص البليغة القوية تسلية وتقوية لقلب الرسول صلى الله عليه وسلم فحسب ، كما قال الله : ﴿وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (سورة هود: ١٢٠)، بل كانت ولاتزال هذه القصص الصادقة مصدر القوة ورباطة الجأش والأمل المشرق الوطيد،والثقة القوية بالنجاح، والفوز والفلاح والانتصار على المعارضين للدعاة والعاملين الذي يعملون على نهج النبوة وعلى طريق الأنبياء، ويقومون بالدعوة إلى الإيمان والعمل الصالح وتقوى الله ويصرون على الأذى ويثابرون على الجهاد ويرابطون في سبيل الله .

ولم تكن هذه القصص مصدر القوة والعبرة للأجيال بعد الأجيال إلا بهذا الأسلوب الإيماني القوي ، وإلا إذا كانت دليلاً على أن دعوة الأنبياء هي التي يكتب لها الانتصار والازدهار، وأن الصفات والسيرة والأخلاق التي يرضاها الله هي التي يقدر لها الفوز والفلاح مهما عارضتها الأسباب، وتألفت ضدها القوي وتداعى عليها الأعداء، ومهما ضعف أصحاب هذه الدعوة النبوية والسيرة المرضية مادياً:

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِي الأَبْصَارِ﴾ (سورة آل عمران: ١٣) .

عرف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أنهم لا يجوز لهم بحكم

العقل والتجربة وبحكم الحواس الظاهرة أن يعتمدوا على عددهم وعلى طاقاتهم، وعلى عددهم على تنظيمهم وعلى علو نسبهم، وكان في ذؤابة قومهم، ومن أفضل خلق الله، ولكن كانوا يعرفون أن الأنساب لا تنفع، وكانوا يعرفون أن النسبة بعيدة بعداً لا يتصور بينهم وبين منافسيهم وأعدائهم، فاعتمدوا على الله وعلى الإيمان، اعتمدوا على الدعوة، وعلى تلك الأخلاق الفاضلة التي تجرد عنها أعداؤهم تجرداً شائناً فاضحاً، وتحلى بها أنصارهم وأصحابهم تحلياً رائعاً معجزاً، وتقدموا إلى المعركة الفاضلة، وهم متوكلون على الله للنصر، يدعون الله للفتح المبين، يدعون الله ليحق الحق، ويبطل الباطل ولو كره المجرمون .

إن سيرة الأنبياء التي حكاها الله تعالى في كتابه في إجمال تارةً، وفي تفصيل أخرى، وذكرها مراراً وتكراراً، تجمع بينها نقطة لا تختلف، وهي انتصار دعوتهم على جميع المعارضات وفوزهم على أعدائهم، إما بإيمان هؤلاء الأعداء وقبولهم للدعوة، وإخلاصهم لها وتفانيهم في سبيلها، وإما بهلاكهم ودمارهم،﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (سورة الأنعام: ٤٥).

لا مستقبل للأمة الإسلامية إلا في طريق الأنبياء :

هذه رسالة هذه القصص الحكيمة البليغة الصادقة، وهذا هو الدرس الحكيم الذي تلقيه علينا حياة الأنبياء وسيرتهم الفاضلة، وهذا هو المنهج الرشيد الذي سار عليه الأنبياء من غير استثناء ، وسجله عليهم القرآن، ولا أمل للأمم الضعيفة إلا في هذا المنهج، ولا مستقبل للأمم التي تؤمن بالمبادئ، وتحتضن الدعوات إلا في هذا الطريق ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ (سورة الأحزاب: ٤) .

وليعلموا أن هذه سنة الله التي لا تتخلف، وأن الدعوة

والكفاح على منهاج الأنبياء، والإيمان والعمل الصالح والطاعة والصبر والسيرة الحسنة الفاضلة شجرة تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، وأن الفرد الضعيف مع هذه الصفات قوي، وأن العدد القليل مع هذه الأخلاق كثير : ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (سورة البقرة :٢٤٩) ([١]).

ربنا توفنا مسلمين وألحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا ندامى ولامفتونين، يا حي يا قيوم برحمتك نستغيث، أصلح لنا شأننا، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ .

وصلى الله على خير خلقه محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين .



[١] - النبوة والأنبياء في ضوء القرآن :٨٠- ٨٣.

فهرس الكتاب

المقدمة ٣
كلمة تقديم ٥
توطئة و تمهيد ٩
تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم ووعيد المكذبين
الحروف المقطعات أسرار إلهية ٢٠
تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم ٢١
وعيد المكذبين ٢٢
نكتة لغوية ٢٢
الفرق بين الخبر والنبأ ٢٣
جامعية صفات العزيز الرحيم ٢٤
الصراع بين الحق والباطل في ضوء قصة موسى وفرعون
إرسال نبي إلى أعدى عدو ٢٥
كيف دخل بنو إسرائيل في مصر؟ ٢٧
خروج موسى عليه السلام من مصر ٢٨
صيانة عصمة الأنبياء ٣٠
الجهر بالحق في بلاط فرعون ٣٢
مطالبة إنقاذ بني إسرائيل ٣٣
منّ فرعون على تربية موسى ، وتهمته ٣٤
اعتراف موسى عليه السلام بالجريمة والصدع بالحق ٣٦
الفرق بين منصب النبوة والقيادة السياسية ٣٧
دعوة سيدنا موسى ومراوغة فرعون
آخر سهم في كنانة فرعون ٤١
صراع بين سيدنا موسى عليه السلام وسحرة فرعون
فطانة فرعون الحاكمة المَلكية ٤٤
إعلان يوم الزينة ومطالبة الساحرين بالأجر ٤٦
صراع بين الحق والباطل ودخول الساحرين في الإسلام بعد هزيمتهم
تهديد فرعون للساحرين المؤمنين ٥٠
جواب إيماني للساحرين ٥٢
خروج بني إسرائيل من مصر ومتابعة فرعون
بلاغة أدبية في كلمة عبادي ٥٤

أسباب عداوة بني إسرائيل ٥٦
بدء الرحلة ٥٨

إيمان نبي وعاقبة عدو الله

سر الفتح ٦٢
اليقين الذي يحالفه نصر الله تعالى ٦٣
تحدي قصة موسى للعقل المادي الضيق ٦٤

دعوة إبراهيم عليه السلام قومه إلى الله تعالى

الاعتماد على الفطرة والواقع في دعوته عليه السلام لقومه ٦٧
الانطلاق والتدفق في الحديث عن الله تعالى ٧٠
نداء القلب لا يبحث عن المناسبة ٧٢
أكبر دافع للقول والعمل ٧٣
ندامة الضالين في جهنم وتمني رجوعهم ٧٦
أعظم تحد للمادية المسرفة ، وأكبر ثورة على عبادة الأسباب ٧٦

دعوة نوح عليه السلام قومه إلى الله تعالى

قوة الاستغناء ٨١
مجادلة قوم نوح وسبب عدم إيمانهم ٨٢
إهلاك العصاة المجرمين وصيانة المؤمنين ٨٣

دعوة هود عليه السلام قومه إلى الله تعالى

مسكن عاد ٨٥
طبيعة عاد ٨٧
هلاك قوم عاد ٨٩

دعوة صالح عليه السلام قومه إلى الله

تكذيب رسول تكذيب للجميع ٩٠
حاجة الدعاة إلى الإخلاص وصدق الأمانة ٩٢
نسيان الله في حياة مترفة ٩٢

نصيحة صالح عليه السلام ٩٣
ناقة الله تعالى وعصيان ثمود ٩٥

دعوة لوط عليه السلام قومه إلى الله تعالى

جواب قوم فاسدي الأخلاق ، وعاقبتهم السيئة ٩٨
هلاك قوم لوط ٩٩

دعوة شعيب عليه السلام قومه إلى الله تعالى

القرآن كتاب يكشف عن أمراض الأمم السابقة ١٠١

التطفيف في الكيل والوزن ١٠١
نتيجة عدم الخشية من الله تعالى ١٠٢
الحاجة إلى الاستغناء وفائدته ١٠٣
تأثير النفسية الاستغلالية ١٠٤
رد إلحادي لقوم شعيب عليه السلام ، وعاقبتهم ١٠٥
ميزة الصلاة وأثرها ١٠٥

كلام الله تعالى
وسيرة خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم

كلام الله تعالى قطعي ويقيني ١٠٨
لماذا انتخب العرب للرسالة الإلهية ؟ ١١٠
أحوال تعسة للمجرمين ١١١
أول إعلان على جبل الصفا ١١٢
الحكمة البليغة في الدعوة والتعليم ١١٣
أمر بإنذار المؤمنين بكل رفق ١١٣
اللوم على اتباع الشعراء الغاوين ، ونزول الشياطين عليهم ١١٤

منارة نور للأمة الإسلامية

مصدر القوة والثقة والأمل ١١٥
لا مستقبل للأمة الإسلامية إلا في طريق الأنبياء ١١٦